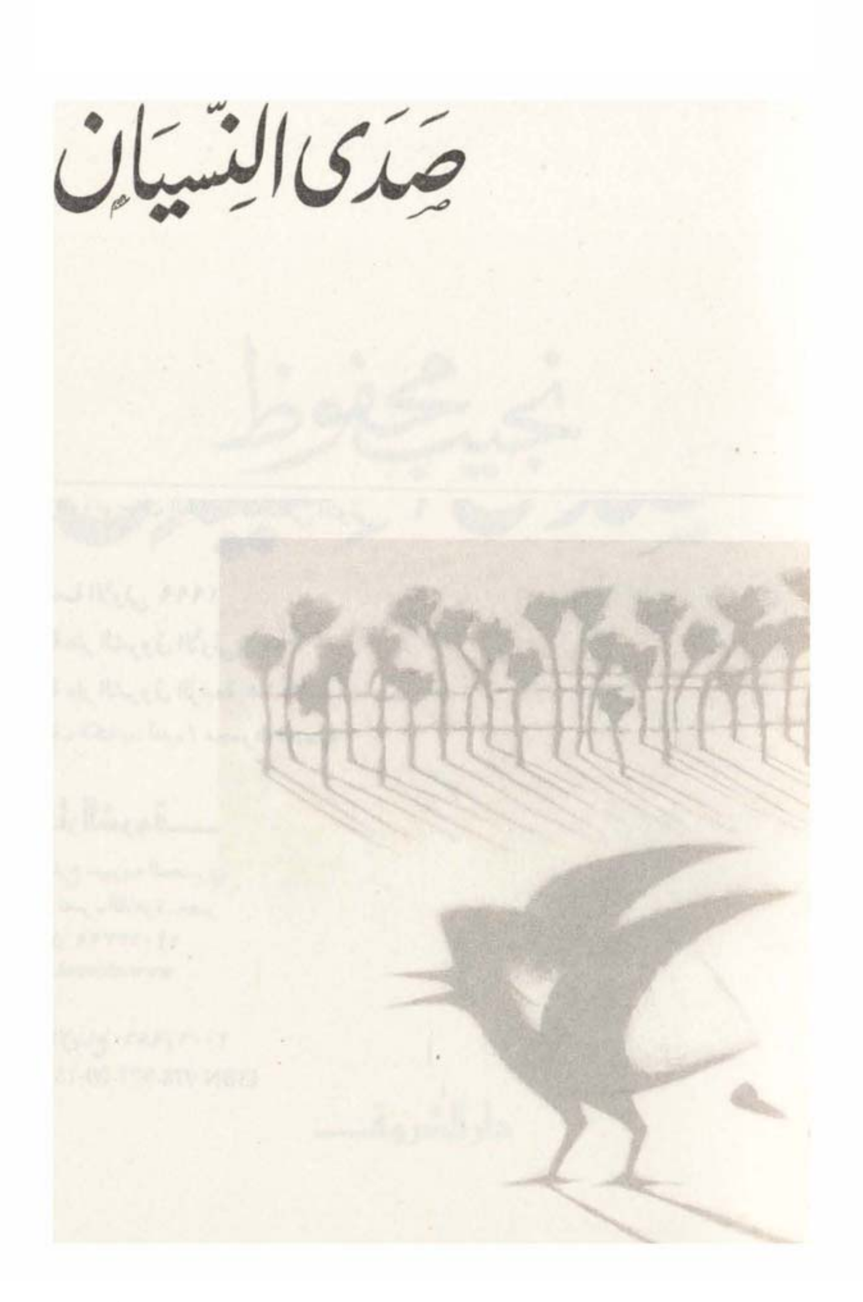
نجيب محفوظ

صدى النسيان

نجيب محفوظ

صَدَى النِّسيان

دار الشروق



Twitter: @ketab_n

صدى النسيان

نجيب محفوظ

إخراج ولوحات الغلاف : حلمي التوني

الطبعـة الأولى ١٩٩٩

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦

طبعة دار الشروق الرابعة ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب / مجموعة قصصية

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٩٨٦٠/ ٢٠٠٦
ISBN 978-977-09-1573-8

المحتويـــات

حـــديقـــة الـــورد

حدث ذلك فى زمن مضى . ومما يذكر أن شيخ الحارة حكاه لى ونحن جلوس فى حديقة الورد . فقد عثر على حمزة قنديل بعد اختفاء طويل وهو جثة هامدة فى الخلاء .

وجد مطعونًا فى عنقه بآلة حادة ، مخضب الجلباب والعباءة بالدم المتجمد ، عمامته مطروحة على مبعدة يسيرة من الجثة ، أما ساعته ونقوده فلم تمس ، مما يقطع بأن الجريمة لم ترتكب من أجل السرقة . وتولت الجهات الرسمية الفحص والتحقيق ، وانفجر الخبر فى الحارة وذاع بسرعة النار فى نشارة الخشب .

وترامى الصوات من بيته ، وجاوبته الجارات بالمشاركة الواجبة وتبادل الناس النظرات ، وساد جو من التوتر والرهبة ، ولم تخل بعض السرائر من ارتياح خفى ، وأيضًا مما يشبه الشعور بالذنب ، وأفصح عن شىء من ذلك عم دكرورى بياع اللبن حين همس لإمام الزاوية :

- القتل أكبر مما يتوقعه أحد ، رغم عناده وثقل دمه!

فقال الإمام :

- يفعل الله ما يشاء .

وسألت النيابة عن أعدائه ، فكشف السؤال عن جو متحفظ غامض . أرملته قالت : إنها لا تعرف شيئًا عن علاقاته فى الخارج . ولم يشهد أحد

بوجود عداوة بين القتيل وبين أحد من أهل حارته. بل لم يُدْل أحد بشهادة نافعة. ونظر المأمور إلى شيخ الحارة متسائلا فقال:

- كل ما لاحظته أنه لم يكن له أصدقاء!

ولما سئل عن أسباب ذلك قال:

- كانوا يستثقلون دمه ولم أهتم بمعرفة السبب.

ودلت التحريات على أن الخلاء كان طريق ذهابه إلى عمله فى التربيعة وعودته منه. ولم يكن يصحبه أحد فى ذهابه أو إيابه. وأمام السؤال التقليدى عما إذا كانوا يشكون فى أحد أجابوا بالنفى القاطع، ولم يكن أحد يصدق أحدًا، ولكن هكذا جرت الأمور. ولكن لماذا لم يكن لحمزة قنديل صديق فى الحارة؟.. وهو ما يرجح بأنها كانت تضمر له العداء؟ قال شيخ الحارة: إنه كان ممن سبقوا إلى شيء من التعليم، فكان يجلس فى المقهى يحدث الناس عن عجائب الدنيا التى يطلع عليها فى الصحف فيثير الدهشة ويجذب الانتباه. هكذا صار قعر كل مجلس يكون فيه، واحتل مركزًا لا يراه الناس لائقا إلا برجال الحكومة أو الفتوات، فحنقوا عليه وتابعوه بقلوب مليئة بالسخط والحسد. وبلغ الأمر نهايته من التوتر عندما تكلم ذات يوم عن القرافة كلامًا عُدَّ خارجًا عن حدود العقل. وذلك عندما قال فى أثناء حديث له:

- انظروا إلى القرافة، إنها تقع فى أجمل موضع فى حينا!

وتساءل الناس عما يريد فقال:

- تصوّروا شمالها حيًا سكنيًا، وجنوبها حديقة!

وغضب الناس غضبًا لم يغضبوه من قبل. وانهالوا عليه لوما وتعنيفًا، وذكروه بكرامة الأموات وواجب الولاء لهم، وكان بيومى زلط على رأس الهائجين فحذره من العودة إلى حديث القرافة وصرخ قائلاً:

ـ نحن نعيش فى بيوتنا سنين معدودة ونلبث فى قبورنا إلى يوم يبعثون!

وتساءل قنديل:

ـ والناس أليس من حقهم أيضًا . . .

ولكن زلط قاطعه هائجًا:

ـ حرمة الأموات من حرمة الدين:

بذلك أفتى زلط الذى لم يعرف كلمة واحدة عن الدين. ولم تكد المعركة تهدأ بعض الشىء حتى حمل شيخ الحارة فى ذلك الوقت قرارًا من المحافظة ينذر بإزالة القرافة بعد مهلة معينة داعيًا الناس لإقامة مقابر جديدة فى عمق الخلاء. . لم يكن ثمة علاقة بين كلام قنديل والقرار، ولكن البعض ظن ـ وبعض الظن إثم ـ والأكثرية قالت: إن قنديل أهون من أن يؤثر فى الحكومة، ولكنه شؤم على أى حال. ورغم ذلك حمله الجميع تبعة ما حدث. وهو من ناحيته لم يخف سروره بالقرار. فضاعف من غيظ الناس وحنقهم، وتجمعوا أمام شيخ الحارة: بين صياح الرجال وعويل النسوة وطالبوه بأن يبلغ الحكام بأن قرار الحكومة باطل وحرام وضد الدين وضد كرامة الأموات. وقال لهم شيخ الحارة إنه لا يقل عنهم غيرة على كرامة الأموات، ولكنهم سينقلون من مكان إلى مكان مع المحافظة الكاملة على الحرمة والكرامة، فقالوا فى إصرار: إن هذا يعنى أن اللعنة ستحيق بالحارة ومن فيها. وصارحهم الرجل بأن قرار الحكومة نهائى وأن الأولى بهم أن يتأهبوا للتنفيذ. وانصرف عنهم وزلط يقول بصوت كالنهيق:

ـ ما سمعنا عن شىء مثل ذلك منذ عهد الكفار!

واختلط السخط على الحكومة بالسخط على قنديل فصار سخطًا واحدًا. ورجع بيومى زلط من سهرة ذات ليلة مخترقًا طريق المقابر.

وعند السبيل الصغير برز له هيكل عظمى متلفعًا بكفن، فتسمر زلط وطار ما فى دماغه من دماغه.

قال الهيكل:

- الويل لمن ينسى موتاه أو يتهاون فى أثمن ما يملك وهو القبر.

ورجع زلط إلى الحارة وقد امتلأ بهمسات الموت. والحق أنه لم يخف على أحد أنه قاتل قنديل. لم يبح بسره أحد خوفًا وانحيازًا. وقيل: إن تلك الحقيقة ترامت إلى مأمور القسم، ولكنه كان أيضًا ضد نقل القرافة المدفون فيها أجداده، وقيدت القضية ضد مجهول وراح دم قنديل هدرًا.

ختم شيخ الحارة حديثه معى بنغمة آسفة ونحن جلوس فى حديقة الورد التى كانت ذات يوم قرافة حينا العتيق.

صـــدى النســـيـــان

كانوا يحلفون باليوم الذى شهد مولده الجديد، والساعة التى وقع فيها تغيره وانقلابه الحاسمان، غادر عنبر بيته عند الأصيل وصار مزهوا فى عباءته السوداء مرسلاً من خطاه الثقيلة نُذُر الرهبة والخوف. وفيما هو يمر أمام كشك الحنفية العمومية توقف كأن مجهولا اعترضه أو صدّه. . أحنى رأسه دقيقتين ثم رفعها فطالع الناس بوجه جديد. . انحلت عقد وجهه ولانت عضلات صدغيه وتلاشى بريق العزم من عينيه فحلّ محله هدوء حائر. . وراح يقلب ناظريه فى الناس والأشياء كأنه يبحث عن شىء أو لا يدرى شيئا. . وتحرك فى الحارة تحركا عشوائيا فى هدوء وذهول لم ير معهما من قبل.

وكان الناس يحيُّونه فلا يردّ، ويلقون إليه أهازيج الملق فلا يتأثر. حدث شىء خطير ولا شك ولكن ما هو؟ وتجمع الناس بعيدا عنه وهم على أشد حال من القلق والتوقع، وجاء فيمن جاء إمام الزاوية وشيخ الحارة. . وتساءل شيخ الحارة:

ـ ماذا يجرى فى حارتنا؟

فأجاب الإمام:

ـ أمر الله ولكل أمر حكمة.

فقالت امرأة أحد أعوان عنبر:

ـ إنه عفريت النسيان، إن مس أحداً نسى الناس ونسى نفسه. تمنى الناس أن تصدق. وأن يذوب عنبر فى النسيان إلى الأبد. وراقبوه

بحذر وهو يهيم هادئًا ذاهلا . . حتى صار هدوءه مألوفا . . وانخفضت حرارة الخوف عامة . واطمأن من كان يتوقع أذى . وتجول عنبر فى أنحاء الحى كلما حلا له ذلك . وكثيرا ما ضلّ سبيله فيرجعه أحد أعوانه وهو لا يعرفه . . وذاع فى كل مكان أن عنبر مسه عفريت النسيان ، وإن شخصا جديدا طيبا حلى فيه مكان الآخر . واعتبر ذلك من عجائب النوادر كما عد منه من الملك الوهاب . وعاد إلى الحارة بعض الذين طردهم سخطه منها فى عهد بطشه وقوته ، وحتى ألمظية التى هربت من شغبه وسوء خلقه رجعت إلى حارتها ، فرجع معها السرور والطرب وترددت من جديد الأنغام العذبة التى طال حنين الناس إليها ورأى عنبر خصومه السابقين فلم يعرف أحدا منهم وحتى ألمظية لم توقظ وعيه أو تحرك ساكنه . ارتاحت الحارة جميعا إلا أعوانه الذين تنكر لهم الزمان ، وجعل شيخ الحارة يحذرهم قائلا :

ـ الزمان تغير ولن أسمح بأى انحراف .

وكانوا أضعف من أن يتحدُّوا أهل الحارة فتعلقت آمالهم بأن يعود صاحبهم إلى وعيه فجأة كما فقده فجأة أو يقع ما ليس فى الحسبان .

وعقب صلاة الفجر قال إمام الزاوية لشيخ الحارة :

ـ لأول مرة يتردد عنبر على الزاوية .

فتساءل شيخ الحارة بدهشة :

ـ أهو ميل مفاجئ للهداية؟

ـ لعله .

فقال الشيخ مشجعا :

ـ املأ قلبه بالدين كيلا يجد فراغا للشر إذا استرد وعيه يوما .

وعرف أن المرأة التى اكتشفت داءه تسعى لدى أهل العلم بالنجوم والسحر والعفاريت ليشفوه من المس ، وأقلق ذلك الناس وطالبوها بأن

تكف عن سعيها، وأنذروها بالشر إذا لم ترجع، وبدا أنهم يرفضون العودة للهوان مرة أخرى. وعاد الإمام يقول لشيخ الحارة:

- اتباع الرجل السابقون يتبعونه فى الهداية.

فقال الشيخ راضيا:

- أخبار طيبة حقا!

- لم يسمع عن شىء مثل هذا منذ زمن السلف الصالح.

وبشر شيخ الحارة الناس بذلك فرحب بالأخبار من رحب، وأعلن أناس بأنهم على تمام الاستعداد للدفاع عن أنفسهم ضد أى تسلط.

ولم يتغير مظهر عنبر فى جملته، وذهب وجاء كرجل من عباد الله الطيبين. لم يؤذ أحدا بفعل أو قول حتى بنظرة. وآمن كثيرون بأنه لن يعود إلى أصله أبدا.. وظل أناس على حذر يتشاورون، ثم توارى عن أعين الناس هو وأعوانه فترة غير قصيرة حتى تضاربت الأقوال وثارت الخواطر.

وفى يوم السوق وقف الإمام يؤذن لصلاة الظهر فمضى الناس فى هدوء نحو الزاوية، وإذا برجل يصيح:

- انظروا.

فاتجهت الأبصار إلى حيث يشير.. فرأوا عنبر ورجاله قادمين، تغير المنظر جملة وتفصيلا. تقدمهم عنبر وتبعوه كالزمان الأول فى الجلابيب والعمائم قابضين على نبابيتهم. وارتد وجه عنبر إلى الصورة القديمة بالنظرة الصارمة والعقد البارزة والعضلات المشدودة. هل رجعنا إلى أيام الطغيان والإتاوات والسيطرة؟

وساد الصمت حتى لم يعد يسمع إلا وقع أقدامهم الثقيلة. وعند الزاوية وقفوا وضرب عنبر الأرض بنبوته وصاح بصوت كالرعد: «الله أكبر» فردد الرجال وراءه فى هتاف يزلزل القلوب: «الله أكبر»!!


الهتاف

ذات صباح رجع أبو عبده إلى حارته. عرفه كثيرون رغم طلاء الأبهة، رغم العباءة والعمامة والعصا والمركوب.. يا للغرابة يا أبو عبده، ماذا أرجعك؟ عاش فى الركن الذى كان يقيم فيه بين أسرته وتلفت حوله فى حيرة. واتجه نحو دكان شيخ الحارة الذى كان يراقبه بامتعاض وحيَّاه وسأله عن أهله. وسأله شيخ الحارة بخشونة:

ـ ما معنى هذه العودة؟

فقال أبو عبده الذى لم يكن يتوقع استقبالا أفضل:

ـ جئت لزيارة الأهل..

فقال الرجل بغلظة:

ـ مات من مات ورحل من رحل هربا من كلام الناس.

ثم بعد فترة صمت مشحون باللوم:

ـ وأنت أدرى بالحكاية وأصلها..

فقال أبو عبده بلهجة لم تخْلُ من تحدّ:

ـ ها أنا أعود يا شيخ حارتنا، وسوف ترانى سيدا يعيش بين السادة..

فقال شيخ الحارة بضيق:

ـ اختر لنفسك ما يحلو، أما أنا فلا يهمنى إلا الأمن العام.

وسرى الخبر فى الحارة مثيرا أكبر قدر من الاشمئزاز. وبأكبر سرعة ممكنة راحت خرابة تتحول إلى سراى لينزل به ذلك الرجل الذى غادر الحارة إلى أطراف الحى وجمع ثروة ضخمة من أحط السبل وأحملها للعار حتى صار مضغة للأفواه ومرغ اسم حارته فى التراب.

وسأل إمام الزاوية شيخ الحارة:

- ألم يجد فى الدنيا الواسعة مكانا لمسكنه بعيدا عن الحارة؟

فقال شيخ الحارة:

- إنه يؤمن بأن نقوده تستطيع أن تفعل المستحيل.

وتلهف أبو عبده مع إعداد السراى ليبدأ ممارسة سيادته. ولكن طوال مدة العمل لم يعن أحد بالنظر إليه. كان يشعر بالاحتقار كظله والكراهية مع أنفاسه.

وتساءل فى توجس: ترى هل أقيم لنفسى سجنا وأنا لا أدرى؟

ونصحه شيخ الحارة قائلا:

- إنه مشروع فاشل.

فقال بإصرار:

- بل سوف تلمس نجاحه وتنوه مع الآخرين بأعمالى الخيرية.

فضحك شيخ الحارة رغما عنه، فقال أبو عبده:

- وسأستعين بك فى مشروعى الخيرى.

فرمقه بريبة فقال:

- أنت تعرف متبولى الأعمى.. كنت مقترضا منه خمسة قروش حين غادرت الحارة فانصحه بأن يذكرنى بها..

فأدرك شيخ الحارة مقصده، لم يتحمس ولم يرفض. وقال لإمام الزاوية:

ـ إذا أراد أن يكفر عن منكره فليكفر . .

فقال الإمام :

ـ إن الأعمال بالنيات وهو ذو نية سوداء دائما .

غير أن سعى شيخ الحارة باء بالإخفاق وقال لـ «أبو عبده» :

ـ متبولى يرفض المطالبة بدينه القديم . .

وانزعج أبو عبده . لكنه لم ييأس . صمم على أن يجعل من واقعة رد الدين لمتبولى حادثا يسيل له لعاب الفقراء فى الحارة فيكسب جبهتهم بضربة واحدة .

وانتظر صابرا كظيما يوم السوق . وارتدى فاخر الثياب إيمانا منه بولع أهل حارته بالمظاهر . وذهب بقدمين ثابتتين يشق طريقه فى الزحام إلى حيث يقرفص عم متبولى أمام مقطفه . قال بصوت جهير :

ـ أحيى صديق العهد القديم . .

فرفع متبولى إليه عينيه الضعيفتين وتحركت شفتاه دون أن يصدر عنهما صوت . وانتبه إليه أناس فتابعوا ما سيحدث باهتمام ودون أن يفارق الفتور وجوههم . وهمس إمام الزاوية فى أذن شيخ الحارة :

ـ أدعو الله أن يمر اليوم على خير .

أما أبو عبده فقال :

ـ لك دين فى عنقى وجئتك الآن لأسدده .

وأخرج من عبّه رزمة أوراق مالية لا ترى فى الحارة إلا كل حين ومين ووضعها بين يدى الرجل لضيق مقطفه . وساد صمت ثقيل ، وتركزت على الرزمة الأبصار . . حتى همس شيخ الحارة فى أذن الإمام :

ـ اذكر هذه اللحظة التعسة فقد تكون بدء تاريخ طويل من الفساد فى حارتنا الطيبة . .

وابتسم أبو عبده فى إغراء، ولما ترامى الزمن دون حركة تحولت الابتسامة إلى توسل، ولكن متبولى أزاح النقود بمقطفه نحو صاحبها وصاح بصوت سمعه الجميع:

ـ خذ نقودك يا قذر..

عند ذاك هتف الجميع بصوت واحد: الله أكبر.. وليحيا الجدعان..

الطاحونة

كانوا ثلاثة قيل إنهم خرجوا إلى الدنيا فى يوم واحد. وحديث الأعمار يبوح بأسراره فى حارتنا عند الحوار بين الأمهات والجارات فى شتى المناسبات، ولعبوا معا عند مشارف الميدان حتى بلغوا السادسة. عند ذاك حجزت البنت لتصبح خفية وراء الجدران واستمر الصديقان فى اللعب والتذكر. أما رزق فيتذكرها كلما احتاجوا إلى ثالث فى لعبة من الألعاب، وأما عبده فحتما منذ تلك السن المبكرة كان يشعر بها حبيبة للقلب على نحو ما. ومنذ تلك السن المبكرة أيضا أدرك أن عليه أن ينتظر عشر سنوات قبل أن يحقق أمله المشروع.

وكان عبده من الذين يملكون، أما رزق فممن لا يملكون. وتزاملا فى الكتاب كما تزاملا فى اللعب. وانقطع رزق عن التعليم بحكم فقره وواصله عبده حتى نال الابتدائية. ومنذ ذاك الزمن البعيد ورزق يتشكل فى وجدان عبده مثالا فائقا فى القوة والجرأة والمهارة فاحترمه وأعجب به وتبعه رغم فارق الغنى والفقر.

ولما مات والد عبده حل الفتى محل أبيه فى مطحن البن الذى ورثه. وكان الأب قد دربَّه، كما أن العمال القدامى أخلصوا له أيَّما إخلاص، ولكنه سرعان ما ضمَّ صديقه رزق إلى المطحن كمعاون له، وكان كل ما حصله كل منهما من التعليم كافيا له فى عمله، وتجلت ألمعيّة رزق فى متابعة العمل من شرائه كـ «بُنٍّ» أخضر إلى تحميصه وطحنه وتعبئته وتوزيعه. وقال لأسرته مفسرا قراره بتعيين رزق:

ـ أنا لا أجد الطمأنينة إلا معه .

ذلك حق . لم يتخل عن خدمته قط . يدفع أى أذى الصبية . يسارع إلى نجدته كلما احتاج إلى نجدة . يسعفه بالرأى والمشورة . ولما ضمه إلى المحل قال له :

ـ كن فى العمل ما كنته فى الحارة ، عينى وأذنى ويدى . .

وفى وقت قصير استحق أن يلقب بالوكيل . إنه الرقيب بين العمال ، الدائب على رعاية الطاحونة ، وأنشط من قام بتوزيع البن فى الدكاكين والمقاهى . يا له من طاقة لا تخمد! وأصبح هو لا يدرى كبيرة أو صغيرة من محله إلا عن طريقه . بالمقارنة أصبح هو لا شىء والآخر كل شىء .

وكان ارتياحه لذلك أضعاف ضيقه به لما طبع عليه من كسل وحب الحياة اليسيرة والميل إلى الاستمتاع بالسهر كل ليلة فى المقهى أو الغرزة . وكان العملاء يقصدون رزق لعقد الصفقات وكأنه مالك كل شىء . ولاحظ خال عبده ذلك وهو فى غاية من الاستياء ولكن الشاب قال له :

ـ بكلمة واحدة منى يتغير كل شىء ، أريد أن تجرى الأمور على ما تجرى عليه ، وأنا يا خالى أحب المال ولا أحب العمل ، ورزق أمين ، وهو هدية ربنا إلىّ . .

ومضت الأمور فى طريقها المرسوم حتى قال عبده لرزق يوما :

ـ آن لى أن أفكر فى الزواج قبل أن يسرقنا الوقت .

ولم يبد على رزق أنه فوجئ وسأله :

ـ هل فاتحت أحداً فى الموضوع؟

ـ أنت أول من أفاتحه فيما يهمنى . .

ـ أحسنت ، فالطريق المعتاد إلى الزواج هو أردأ الطرق ، فدعنى أتحرى بأسلوبى الخاص والله يهدينا سواء السبيل . .

هكذا سلّمه شئون قلبه ضمن اختصاصاته، ولم يكن رأى ظريفة طيلة السنين إلا مرات معدودة، ولكنه لم يحب من جنس النساء سواها، غير أنه قال كالمعترض:

ـ أسرتها طيبة وحسنة السمعة ولا حاجة بنا إلى التحريات.

ـ هذا كلام الناس الطيبين ولكننا لن نخسر بالسؤال شيئا..

وانتظر عبده وهو يزداد قلقا وتوترا، ويتساءل فى حنق: متى تنتهى تلك التحريات المشئومة. والتقت عيناه بعينى صاحبه إذ هما فى المقهى فقرأ فيهما ما أثار خواطره وسأله:

ـ ماذا وراءك؟

فقال بحزن شديد:

ـ ليس خيرا.

فهتف:

ـ يا خبر أسود، ماذا قلت؟

ـ هى الحقيقة للأسف..

ـ لكن ظريفة ملاك.

ـ إنها ليست ملاكا.

فغمغم بعد تردد:

ـ أنا أريد البنت.

فقال الآخر بادى الامتعاض:

ـ أنت حر.

وانطوى على نفسه يفكر ويفكر. ويتردد بين الإقدام والإحجام، وضاعف من تعاسته أن رزق اعتكف فى بيته لمرض طارئ. وذات أصيل وهو منفرد بنفسه فى المطحن ترامت إلى أذنه زغرودة. وجاءه

عامل يخبره بأن رزق كتب على ظريفة فى حفل خاص ونفر من الأهل .

وثار عبده ثورة جعلته يبدو بين عماله كالمجنون حقيقة لا مجازا . وزاره قريب لرزق يحمل إليه اعتذاره وقوله إنه فعل ما فعل لينقذه من شر كبير كان حتما سيقع فيه . وضاعف الاعتذار من جنونه وأعلن طرده من المطحن وتوعده بشر من ذلك .

ولكن الذى حدث غير ذلك . وقال لى شيخ الحارة ـ وهو راوى قصة عبده ورزق وظريفة ـ إن عبده عاد مع الأيام إلى رشده . وغرق فى عمله لا يدرى ماذا يفعل فاقتنع بأنه لا غنى عن رزق . وعفا عنه وأعاده إلى مركزه السابق .

والأعجب من ذلك كله أنه فاجأنا ذات يوم بالزواج من أم ظريفة !

الصعود إلى القمر

تم الهدم وبقيت الأنقاض. تجلت أرض البيت القديم مساحة شبه مربعة فى الفضاء خالية من أى معنى وبلا رموز. وقلت للمهندس وهو أيضا صديقى:

ـ انظر كم هى صغيرة.

فقال وهو يتأملها متفكرًا:

ـ كان فيها الكفاية لإيواء أسرة ما شاء الله كبيرة.

واستغرق فى تأملاته ثم استطرد:

ـ لا جدوى اقتصادية من بناء مسكن أو عمارة صغيرة. .

ـ قلت لك: إننى لا أفكر فى ذلك.

ـ لكن ما تفكر فيه خيال خارق، إليك مشروعًا طريفًا ومفيدًا، أن نبنى مشربًا لبيع العصائر والحلوى، وسوف يكون تحته فى هذا المكان الأثرى، وألف من يتقدم لاستئجاره إذا عرض للإيجار فى الوقت القريب.

فابتسمت قائلا:

ـ فكرة طيبة ولكنى لم أقصدك إلا لتنفيذ ما فى رأسى. .

ـ إنه خيال أشبه باللعب. .

فقلت بإصرار:

ـ أريد أن أعيد البيت القديم كما كان أول مرة دون أدنى تغيير حاذفًا الزمن من الوجود.

وخلوت إليه فى مكتبه. وأصغى إلىّ بعناية ويده لا تكف عن الرسم والتخطيط. ودار نقاش مرات فعندما وصفت له المدخل والسلم قال:

ـ أسلوب فج. ويصدم القادم بوجوده دون أى تمهيد، دعنى..

فقاطعته بإصرار:

ـ ما أريد إلا أن يرجع البيت إلى أصله..

وفى لحظة أخرى قال:

ـ المسكن لن يزيد عن حجرتين أكبرهما صغيرة..

ـ أنا عارف.

ـ وتضيع نصف المساحة لبناء حمام يتسع لخزان لتطهير الزهر والورد، وبناء فرن بلدى، أى زهر وورد وخبز..!

ـ هذا ما أريد، ولا تنس السطح، فيه حجرة صغيرة صيفية، وحجرات لتربية الكتاكيت والأرانب.

وضحك صديقى طويلاً ولكن يده لم تكف عن التخطيط. إنه يعلم جيداً أننى لا أفكر فى الاستثمار. وكان مرجوى أن أقيم استراحة شعبية لبناتها الذكريات والأحلام، وتنفع مهربا من هموم الحياة وضغوطها، وعندما يتم تأثيثه وتزيينه من محال خان الخليلى سيكون تحفة، ولكن بمعنى آخر غير ما قصده صديقى المهندس من بناء المشرب وإعداده للسياح والأهالى. ولعله أساء الظن.. حذرنى قائلا:

ـ ستكون فى قلب حى عريق فحذار من تجاوز التقاليد.

فضحكت وقلت له:

ـ لو فكرت فى شىء مما تعنى لوجدت سبيلى دون حاجة إلى هدم وبناء! وتم بناء البيت أو إعادة بنائه على ما اتفقنا عليه. وكنت أتابع

خطوات البناء الأولى ثم انقطعت عنه لاستمتع برؤية جدته[1] وكأنها مفاجأة سعيدة. وقال لى المهندس:

ـ تم كل شىء كما تريد فأرجو ألا تندم..

وذهبت معه لإلقاء نظرة أخيرة والتسلم. وعندما أقبلت من أقصى الطريق تراءت المشربيتان كما كانتا تتراءيان فى الزمن القديم. وكعينين ترمقان دعتانى للدخول، قام البيت بين البيوت القديمة على ناحيتيه التى بقيت على حالها دون أى تغيير خارجى، أما سكانها القدامى ـ جيران الزمان الأول ـ فقد تلاشوا فى غياهب المدينة ولم يتردد لأحد منهم ذكر إلا فى صفحة الوفيات، وجعل قلبى يخفق. ورأيت المطرقة معلقة بالباب فرأيت الأيدى العزيزة تقبض عليها. وقال المهندس كالمعتذر:

ـ كان علىّ أن أتخذ الاستعدادات لإدخال المياه والكهرباء.

فقلت له:

ـ فى نيتى أن أستعمل المصباح الغازى..

ـ ستكون جاهزة إذا احتجت إليها عندما تفيق من الخيال.

ولكنى أمعنت فى الخيال وأنا أرتقى فى السلم العالى. وحال بلوغى الطابق المعد جذبت إلى الوراء البعيد بشدة. غاب عنى صوت المهندس، كدت أنساه تمامًا. ها هو الفرن. لكن أين حرارة الدفء واللهب والمجلس السعيد؟ وتقت إلى عبق الخبيز. وها هو الحمام بمنوره المزركش وخزانه العريض والحوض المفعم بالزهر والورد. وها هى أنابيب التقطير تكاد تسيل بالرائحة الذكية، وجلست أراقب اليدين فى نشاطهما العذب وأستمع إلى التلاوة. واندفعت أجرى فى الدهليز بين الحجرتين تطوقنى الأصوات المحذرة. واختلط التهديد بالضحكات العالية، واعترضنى الذى يضع على وجهه قناعًا من الكرتون رسمت

---

(١) شكله الجديد.

عليه صورة الشيطان، وجاء صوت معاتبًا: «لا ترعبه فالرعب لا يزول»، وصعدت إلى السطح فهالنى أن أجد الحجرة الصيفية خالية من غطاء اللبلاب والياسمين، وأن أرض السطح خالية من السلم الخشبى وحبال الغسيل، وجذبنى صياح الديك إلى حجرة الدجاج فهرعت إليها، وفردت جلبابى وأمسكت بطرفه لأجمع فيه البيض.

وصحت فيمن يرافقنى: «انظر» وأشرت إلى لون المساء الهابط على الحى من خلف القباب والمآذن. وطلع البدر فى خيلاء من وراء البيوت العتيقة فتطلعت إليه بشغف. عند ذاك رفعت فوق الكتف وهمس لى الصوت الحنون: «خذه إن قدرت»، فمددت يدى بمنتهى الحب والأمل إلى البدر الساطع.

معركة فى الحصن القديم

عاد إلى الحارة فى أول إجازة بعد فترة غياب غير قصيرة. وهمست امرأة «ذهب يوم الكشف بجلبابه، وها هو يعود بالبدلة الكاكى، ما أجمله فى البدلة الكاكى». وحذاؤه الأسود الضخم لم يخف على أحد ولا طربوشه الطويل. أجل نَحُفَ ولكن عوده اشتد وصلب. اكتست بشرته بسمرة غميقة من شمس الصحراء. وقال عجوز سبق تجنيده:

ـ أمامه خمس سنوات سخرة كسائر الجنود المساكين.

يوم دعى للتجنيد كان من أيام الحارة الحزينة. هرعت أمه إلى شيخ الحارة وقالت له فى ضراعة: «نحن فى عرضك». فقال لها الرجل: «قوانين الحكومة لا تجدى معها الشفاعة» وأوصاها أن تذهب به إلى رجل مشهود له بالمهارة فيضمن له عاهة تعفيه من القبول يوم الكشف، ولكن الشاب رفض الفكرة وقال لأمه: إنه يفضل خدمة الجيش خمس سنوات عن عاهة تلتصق به طوال الحياة. هكذا قبل جنديا بلا زغاريد.

ويوم المحمل احتفلت به الحارة كلها. احتل الرجال قطاعًا من الطريق فيما يلى حى الشوام، وتكأكأت النسوة فيما بين الحمام والجامع. وخفتت ضجة الجماهير حين ترامت أنغام الموسيقى النحاسية، ثم أقبلت فرقة من المشاة تتقدم الموكب، تسير أربعة أربعة واضعة البنادق على المناكب. وظهر الشاب بين الجنود، جادا جداً بخلاف ما ألفوه. ولما مر

صفه أمام أهل الحارة من الجانبين تعالى الهتاف والزغاريد. ورفعوا أمه فوق عربة كارو وقفت عند جانب الطريق، وخفقت القلوب بالأفراح.

وعاد الشاب إلى حارته في الإجازة ليستمتع بشيء من الحرية والراحة. وعزمت أمه على ألا تضن عليه بشيء ولو باعت آخر أسورة فى معصمها. وقال لأمه وهو يخلع ملابسه:

ـ حياة القشلاق فوق طاقة البشر.

فدعت له بالقوة والصبر ثم قالت متشكية بدورها:

ـ وحياتنا فى الحارة أصبحت مثل حياة القشلاق وأسوأ، ألم تسمع بما حصل؟

ـ بلى قد سمع كلمات متناثرة ولكنه لم يدرك أبعاد الحكاية، فواصلت أمه قائلة:

ـ لم يكن ينقصنا إلا العفاريت، ألم يكن فى الناس الكفاية؟

الواقع أدرك الشاب أن الحارة تمر بمحنة. قدر رهيب حرك الشر فى قلوب ساكنى الحصن الذى يوجد بابه المغلق تحت القبو. وعلى غير عادة جاوزوا حدودهم فى العبث فقطعوا الطريق على كل من انفردوا به ليلا، وملأوه رعبا فسقط منهم جرحى وهم يفرون من الهول. استمع الجندى إلى حكايات الضحايا وعاين الجراح والكسور ثم قال بامتعاض شديد:

ـ ما يصح أن تعبث العفاريت بحارة مؤمنة..

فأيده جميع السامعين وقال صوت:

ـ نحن فى حاجة إلى بطل..

فهز الحماس الشاب وقال:

ـ أنا لها!

فثارت ضجة وهتاف، وتحمس كل شخص باستثناء أمه فأسكره الحماس وصاح متحديًا:

ـ أنا لها!

وانتظروا المغيب وقد تعلقت به الآمال، وانزوت أمه تبكى، وهبط المساء ذلك اليوم فى هالة من التهاويل والأخيلة الخارقة. ووقف الجندى ممسكًا بعصا أهداها إليه فتوة متقاعد. وتقدم من القبو يشق طريقه فى زحمة الخلق فعلت الضوضاء حتى غطت على تحذيرات أمه الباكية. وفى صوت قوى واحد صاحوا «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم» وفى ثبات ظاهر مرق الجندى من باب الحصن القديم. وأنصتوا بقلوب راجفة ودفنوا الهمسات فى الصدور. ومال شيخ الحارة نحو الإمام وسأله:

ـ كيف تنتهى المعركة؟

فأجاب الإمام:

ـ الله يؤتى النصر من يشاء.

وندت من الداخل حركات عنيفة ارتعدت لها القلوب، ثم كان انفجار، تبعه صوت كالرعد، وانتشرت فى جوف القبو أصوات دق وكسر وتمزق وزمجرة ودار همس حار مع الأنفاس المضطربة: «الدقيقة بعام كامل، لو انهزم الحق علينا أن نرحل عن الحارة. لولا حكمة ربنا ما أقدم الشاب على المعركة».

وساد الصمت فجأة وفتح باب الحصن مرة أخرى فاقتحم صريره سكون الليل. وأمر شيخ الحارة بإشعال فوانيس الطوارئ فاشتعلت وتراءت على أضوائها الوجوه الشاحبة ولاح الجندى فى الباب فهتف الناس بجنون «الله الله» وتقدم نحو الحارة يسير فى مشية عسكرية فأوسعوا له. وإذا بطابور من الأشباح يتبعه بنفس المشية يسيرون أربعة أربعة. ذهل الناس وهم يرون الطابور وهو يشغل سطح الحارة من القبو حتى مخرج الميدان. وتوقف الجندى فتوقفوا وهم يتحركون محلك سر. ظلوا يتحركون هكذا حتى لم يجد الناس مكانا إلا لصق الجدران.

وألف الناس الفرحة وأفاقوا من سكرتها، وحل محل ذلك تساؤل ودهشة وقشعريرة خوف. وسأل رجل شيخ الحارة:

ـ عم أسفرت المعركة؟

فقال الرجل بضيق وسرعة:

ـ ألا ترى ما أمامك يا أعمى..؟!

وأصرت الأم على إطلاق تحذيراتها حتى رميت بالجنون. ولم يعد يسمع فى الليل إلا وقع الأقدام الثقيلة!

العشق فى الظلام

عندما يغلق باب المقهى لا يبقى ساهرا فوق أرض الحارة إلا الخفير . لتفقد أقفال أبواب الدكاكين، يذهب ويجيء ما بين الميدان وممر القرافة سائرا فى ظلام دامس متلمسا طريقه بغريزته المكتسبة من العمل ومعلقا بندقيته بمنكبه وبين حين وآخر يطلق نذيره الحلقى الذى يشق الظلمة .

أطلق عليه منذ بدء خدمته : «أبو الهول» بما يرمز له الاسم فى الذاكرة الشعبية من الجلال والرهبة، الواقع أنه ذو طول مؤثر وعرض لا يتناسب مع ذلك الطول، أما شاربه فيقف عليه الصقر، وأما رأسه فصغير وقلبه طيب لا يتوافق مع أغراض وظيفته، والحق أنه مضى يهزل وبرق وتتجمع فى عينيه سحابة حزن، وتساءلت القلة التى تراه وهو يبدأ عمله الليلى عن السر. وتجرأ أحدهم فقال له :

ـ لست على ما يرام يا خفير بندق .

فأجاب بغموض قائلا :

ـ هى الدنيا يا معلم .

إنه يعاشر الظلام، ولا يعرف من أهل الحارة إلا الراجعين قبيل الفجر من الحشاشين والسكيرين والخباصين، ولعله لا تصل إلى مسمعيه فى صمت الليل إلا الأنات الشاكية، وقيل إنه سيهزل ويهزل حتى تعجز الأعين عن رؤيته .

ولكن الأنات الشاكية لم تكن الأصوات الوحيدة التى تزحم أذنيه .

هناك الصوت الذى يتسلل من نافذة بدروم البيت القائم أمام السبيل ، أسمعه أنين الحب وأنغامه . كل ليلة عقب عودة النجار من سهرته ، يترنح ويدندن ثم يهبط إلى مسكنه ، وبعد فترة وجيزة تتسلل الأنغام من منافذ النافذة ، كل ما استطاع أن يعرفه أن البدروم مسكن للنجار وامرأته ست بطة ، ولكنه لم يرها أبدا . إنها تقضى شئونها فى غرفتها . عرفها من صوتها آخر الليل ، ولم يكن من أهل الحارة ولكنه عشق الصوت ، وهام به هياما حتى نبض فى قلبه . وتردد فى أنفاسه . يسمعه ليلة بعد أخرى ويتشربه ساعة بعد أخرى ويخلق من ترنيماته وتهويماته صورة جامعة لمحاسن نساء الريف والمدن ، يناجيه فى سهرته الطويلة ويستغيث به فى وحدته ، وتجسد له مرات فحاوره ودعاه وقال له لا يعرف الألم الدفين إلا خالقه ولا يغيظه شىء كما يغيظه دندنة النجار وهو عائد مترنحا . وخطر له أنه لو أعياه السطول ليلة فسقط لحمله إلى الداخل ليرى ست بطة . ورن صوته فى القبو مرة وهو يغنى :

باسمع نغم بالليل عشق الحبايب هدنى الحيل .

وأعجبه صدى صوته داخل القبو فأعاد الغناء وفاض به الحنين فتساءل : «وإيش بعد الغناء يا بندق؟» .

وجاءه صوت من وراء باب الحصن الأثرى :

ـ ما بعد الغناء إلا العمل . .

فارتعد متذكرا ما يقوله أهل الحارة عن سكان القبو . ولكنه تشجع ضاغطا بذراعه على بندقيته وسأل بلهجة ميرى :

ـ مين أنت؟ . . كيف دخلت الحصن؟

فأجاب بصوت باسم :

ـ أنا شيطان يا خفير بندق ، ولولا الشيطان ما كان الإنسان .

وسرى الصوت فى كيانه بقوة فلم يشك فى أنه بحضرة شيطان

حقيقى . حاول أن يتلو سورة ولكن رأسه أفرغت من محفوظاتها القليلة، وسأله مستسلما :

ـ ماذا تريد؟

ـ ماذا تريد أنت؟

ـ ما أريد إلا أداء واجبى .

ـ أنت كذاب .

وترامت إليه دندنة النجار وهو راجع فخفق قلبه وقال الصوت من وراء الباب المغلق :

ـ أعطنى بندقيتك . .

لم يذعن ولم يرفض ولكنه شعر بالبندقية تنزع من حول منكبه . وفجأة دوت طلقة نارية فمزقت مخالبها ستار الليل، نام ثوان فحلم ثم صحا . ولما صحا رأى شفافية الضياء الباكر تهبط فى مركبة سماوية ورأى لمة تحيط بجثة يتدفق الدم من فيها وانكبت فوق الجثة امرأة وهى تصرخ وتبكى وتندب أبا العيال .

وندت عنه حركة فاتجهت إليه الأبصار وأكثر من صوت سأل :

ـ من قتل الرجل يا خفير بندق؟

فتراجع حتى استند إلى شرفة السبيل وهو يحدق فيهم .

ـ لا بد أنك رأيت كل شىء . . فمن قتل الرجل؟

فأجاب بذهول :

ـ قتله الشيطان . . !

وكان يرى ست بطة لأول مرة، ولآخر مرة .

ذاكرة الجيران

فى ليلة وقفة رمضان لعام من الأعوام البعيدة الماضية قامت خناقة مالها إلا النبى بين أسرتى : برغوث وعميرة . وكالمألوف فى تلك الظروف اضطرب استقرار الحارة فأغلقت الدكاكين وصوَّتت النساء وزاطت الصبية ، ووقف إمام الزاوية وهو يصيح بأعلى صوته :

ـ وحّدوا الله . . ما هكذا يُستَقبل الشهر الفضيل . .

ولكن لم يتمكن أهل الخير من التخليص بين الأسرتين قبل أن يصاب منهما رجلان مهمان هما : محمود برغوث والناصح عميرة . وساءت حالتهما وتدهورت ففارقا الحياة فى يومين متعاقبين ، وهل رمضان فى جو من الوجوم والأسى وقال الناس إن هذا لا يرضى الله ولا خلقه ، وإنه يجب وضع حد لتلك العداوة المتوارثة ، خاصة بعد أن اندفع تيارها فى مجرى جديد لم يعد يقنع بالجرحى ولكنه سجل أول ضحيتين له من الموتى . وقالوا إنه على كل صاحب نفوذ أن يتدخل وأن يبذل ما يملك من قوة لإقرار الصلح بين المتخاصمين منذ الزمن السحيق . وبناء على بلاغة إمام الزاوية وضغوط الأهالى قرر شيخ الحارة أن يتحرك . دعا إلى دكانه كبيرى الأسرتين : على برغوث وخليل عميرة . وقدم لهما القهوة وطلب منهما أن يقرءا الفاتحة ويصليا على النبى .

ـ لنطرد الشيطان عن مجلسنا . .

وقلّب عينيه بين الرجلين ثم قال :

ـ ما بينكما قديم، وضحاياه من الجرحى لا يحصون على المدى الطويل، ولكن بالأمس القريب مات رجلان ولا كل الرجال، والموت يدفع إلى الموت والمسألة لم تعد محتملة والجميع يريدون لها أن تنتهى، فلنحتكم إلى العقل والدين لنصفى الحساب القديم ونبدأ حياة جديدة. . فتوارى كل منهما وراء صمته وعكست الأعين صلابة وضيقا، فقال الشيخ:

ـ لنطرح أسباب الخصام أمامنا، وإن لزمت دية دُفعت أو كانت خطيئة كُفِّر عنها. . لا داء بلا علاج. . ولا بد للشر من نهاية. .

ولما آنس منهما رفضا وعنادا راح يصارحهما بأن أسرتيهما صارتا تسلية الماجنين من أهل حارتنا، يضربون بهما المثل فيقولون لبرغوث وعميرة كما يقال عن القط والفأر. يتقبل الكهلان الوقوران منكم فيتبادلان الشتائم، تتراءى المرأتان فيدور الردح والتشليق، أما لقاء الشباب فالعنف والدم. ومن عجب أننى لم أعثر على شخص فى حارتنا يعرف لخصومتكما سببا، أكان زواجا أو طلاقا أو صفقة خاسرة أو جريمة؟ الظاهر أن السبب ذاب فى مخزن التاريخ. وبقيت العداوة وحدها. .

ـ ولكنكما كبيرا الأسرتين ولا بد أنكما تعرفان السر، فلنطرح السبب بيننا، وإن لزمت دية دفعت، أو كانت خطيئة كفر عنها.

ظل جدار الصمت قائما بينهما وبينه فهدهد غيظه وتساءل:

ـ يا معلم على. . ماذا تريد لترضى؟ وأنت يا معلم خليل. . ماذا تريد لترضى؟

وبإزاء استمرار الصمت هتف: «يا صبر أيوب». . ثم وجّه خطابه لهما:

ـ اكشفا لى عن سبب الخصام.

ثم بعد فترة يسيرة قال برجاء :

ـ حلَّفتكما بالحسين أن تتكلما .

لكنهما لم ينْبسا بكلمة ، وفى الوقت نفسه قلقت نظرة حيرة فى أعينهما فاسترد نبرَته الحازمة وقال :

ـ لا بد من الكلام ، وإلا دعوت الشرطة والنيابة للتدخل فى الشئون التى تعودنا أن نعالجها بأنفسنا .

ولما قرأ الإعياء فى وجهيهما فض الاجتماع وهو يتمتم : «لنا عودة» .

ومرت بشيخ الحارة فترة بحث وتقصٍ فسأل الكثيرين من أفراد الأسرتين عن سبب الخصام ولكنه لم يظفر بجواب ، بل وضح له أنهم يجهلون السبب تماما ، وكما قال لإمام الزاوية فإنهم يذكرون العداوة جيدا ولكنهم لا يعرفون علة لها . وركبه التصميم فقرر أن يزور الدفتر خانة ثم دعا إلى دكانه كبيرى الأسرتين : على برغوث وخليل عميرة . وقال لهما بثقة هذه المرة :

ـ لا أحد يعرف السبب سواكما ، وإن كنتما تجهلانه كالآخرين فإنى على أتم الاستعداد لكشفه لكما . .

فسأله المعلم على بحدَّة :

ـ من أين لك تلك المعرفة؟

فأجاب بهدوء الواثق :

ـ فتشت عن ذلك فى دفاتر شيوخ الحارة المعاصرين للأجداد وقرأت فى دفتر أحدهما . . ووقع نزاع فاضح بين برغوث وعميرة . .

عند ذاك صرخ المعلم خليل :

ـ كفى .

فسكت شيخ الحارة قليلاً ثم قال :

ـ لم يكن الأمر فاضحا بهذه الدرجة فى الزمن القديم ولكن جرى الزمن وتغيرت القيم فأصبح سبب النزاع مما يوجب الستر، فأجمع المتخاصمون على إغفاله حتى نسى وبقيت الخصومة وحدها تتوارثها الأجيال. وابتسم فى وجهيهما ليخفف من وقع حديثه وقال برقة:

ـ معذرة.. إن هدفى الوحيد هو الكف عن الأذى والعودة إلى حياة الجيران.



عرف عبدين يومًا بحكايته التى جرت على كل لسان، ورث دكان العطارة الصغيرة عن أبيه، فيسَّرت له رزقًا موفورًا، وعاش مع أمه بعد زواج إخوته فى بيتهم القائم أمام الزاوية، وتميز بين شباب الحارة برشاقة القوام ووداعة القسمات، ودماثة الخلق وحسن العلاقات مع المعارف والأصدقاء، أما أول ما اشتهر به من الطبائع وألصقها بعقله وقلبه فهو إيمانه بالعرافين وولعه بزيارة أضرحة الأولياء، ولم يكن يخطو خطوة حتى يستخبر أهل الذكر، ويستعطف القدر، وكان لعبدين جيران، صاروا لطول الجيرة وحسن السيرة وكأنهم من صميم الأهل، وكانت لهم بنت تدعى شمائل ولدت بعد عبدين بعامين، فعرفها منذ كانا يلعبان فى الحارة، أو تجمعهما زفة الفوانيس فى رمضان، وعرفت شمائل بإشراق الوجه وحسن التكوين، وجمال الأدب، أتقنت منذ فترة شئون البيت، وما يلزم ربة البيت من ضرورات وكماليات، وحتى الخط كانت تفكه، فتكتب اسمها كما تكتب باسم الله الرحمن الرحيم.

وكان من المتفق عليه والمعروف فى الحارة أن شمائل هى عروس عبدين، وأن عبدين هو عريس شمائل، وفضلا عن ذلك فقد ربط الحب بينهما، ومهدت البسمات لمعجزة اليوم الموعود.

ولما اقترب الوقت المناسب تحرك طبع الفتى الدفين، وقال: كيف لا يفوتنى سؤال الشيخ لدى كل حركة عادية أو تافهة ولا أقصده فى مصير

حياتى، وأخذ بعضه وذهب إلى شيخه العارف بالله الشنوانى بحجرته بأم الغلام، وطرح سؤاله والآخر يقبض على يده ويشم عرقه، ثم قال له الشيخ: اذهب الآن إلى حارتك وانتظر عند مدخلها، وسلِّم أمرك لأول بنت تخرج منها، هى التى تحمل لك سعادتك المقسومة لك فى هذه الدنيا، ولن تحظى بخير منها إلا فى الآخرة.

ورجع إلى حارته وهو فى غاية من التوقع والتوتر، وكان على شبه يقين من البنت التى سيراها، ولكن أين تذهب شمائل فى ساعة الغروب؟ وكان سرحان الأعمى أول من خرج من الحارة، وتلاه غلام يسوق الطوق ويغنى «على باب حارتنا حسن القهوجى»، واشتد قلق عبدين فقال فى سره: «سلمت إليك أمرى يا رب العالمين»، وإذا بصوت ينادى «عال الجوافةو وظهرت عربة يد فوقها هرم من الجوافة تدفعها حليمة، ذهل، لم يحول عينيه عنها، وضحكت هى لما رأته وقالت مداعبة: «واقف مثل غفير الدرك»، ومضت نحو الميدان، سار وهو يقول لنفسه: «يا رب لطفك ورحمتك»، أيعنى الشيخ حقا حليمة بنت أم حليمة بياعة المخلل وابنة المرحوم أحمد المكارى؟ لا أحد فى حارتنا يجهل حليمة، وهى أيضًا تتعامل مع الجميع، ولكنه كما تقول أمها مفاخرة: «رجل بين الرجال»، رغم رشاقة عودها وثرائه. وكانت مقبولة الوجه وجذابة أيضًا رغم قوة نظرتها النافذة، وخلا عبدين إلى نفسه ليتفرغ للحيرة، ويذهب مع خياله ويجىء بين شمائل وحليمة، وشكا سره إلى صديقه الذهبى فقال له:

- أى وجه للمقارنة بين شمائل وحليمة! وأنت عرفت شمائل من خلال الجيرة والمعاملة وشهادة المعارف والجيران، أما كلام الأولياء فليس منزلاً من السماء، ولكن إيمان عبدين بقول الولى كان فوق أى مناقشة، وانتشرت رائحة الخبر رويدًا رويدًا، فأثارت الدهشة والضحك كما بعثت الدموع فى أعين كثيرة، وحصل كلام ونزاع

وصراع، ولكن عبدين صمد لكل معارضة بقوة إيمان لا يتزعزع، وفى ساعة العصرية، وقبل أن تتحرك حليمة بالعربة ذهب عبدين إلى حجرتها، بربع الزاوى وطلب يدها من أمها، وأخذ الخيال يتحول إلى حقيقة، وسمع حمودة فى إحدى الليالى يقول فى الغرزة على مسمع من جميع المساطيل: «المجنونة الجشعة ما أحبت أحداً سواى، ولكن أعمتها صورة دكان العطارة».

وذهبت العروس إلى الحمام لتزيل عن جسدها الممشوق عرق الأعوام وغبار الحارة وفلَّت شعرها المسكون، فتبدت فى صورة لامعة وزفت إلى الفتى العطار فأقام معها فى شقة أمام السيرجة، ودعا ربه أن يهبه السعادة التى ضحى فى سبيلها بقلبه وبكل اعتبار.

وكانت أيامًا صافية، وانغمس عبدين فى هواه الجديد ليغطى على أصداء حبه الأول ويدفن هواجسه، وفقدت الحكاية جدتها ودهشتها فلم يعد يتندَّر بها أحد، وكان يمارس الحياة ويلاحظها بانتباه حتى لا يفوته سر من أسرار السعادة، ومنذ بدأ المعاشرة شعر بقوتها وصلابتها وبأنه يضعف أمام نظرتها النافذة. والحق أنه توقع أكثر مما كان ولكنه أقنع نفسه بأن السعادة الموعودة ليست هبة بسيطة أو إحساسًا سهلاً يجود بذاته منذ اللحظة الأولى، إنها حياة عميقة ذات سراديب فلينتظر، أما حليمة فلم تنتظر، سرعان ما ضاقت بحياتها فى البيت، ولم تعد تخفى ضجرها، ولا تمردها على سجنها، وتحير عبدين أمام ظاهرة غير مألوفة فى دنيا النساء. ولكنها قالت له بصراحة وجرأة:

ـ دعنى أعمل فقد خلقت لذلك.

وذهل عبدين، وأخرسه الذهول فاستطردت:

ـ لا يهمك كلام الناس، متى سكتوا عنا؟

وكانت تصر وتصمد وكان ينفعل ويتراجع، ولم تكن تهمه

الحوادث، باعتبارها مقدمات لسعادة لا مفر منها، ألم يقل الشيخ الشنوانى كلمته؟

وشهدت الحارة حليمة وهى تشارك زوجها فى دكانه، ورجع الاتصال بينها وبين زبائنها القدامى، فى معاملات العطارة، ورجع حمودة أيضًا بين الغمز واللمز، وكثر اللغط والضوضاء حتى سأله صديقه الذهبى:

- أتعجبك هذه السعادة؟

ولكن عبدين بدا صامدًا مؤمنا فقال له:

- الصبر طيب والنصر قريب.

ولكن حليمة اختفت فجأة، استولت على ما اعتبرته حقها من النقود المودعة فى الدكان واختفت، وبعثت إليه رسولا يعتذر إليه ويطلب الطلاق، كبر كل شىء على عبدين، وقوض الزلزال صبره فبكى، ولما رأى صديقه الذهبى مقبلاً تعانقا بحرارة، وفى أثناء العناق استرد الكثير من روحه الضائعة، وقال لصديقه:

- سأطلقها فى الحال.

فلم يخف صديقه فرحه، ونظر عبدين إليه طويلاً فى فترة صمت ثم قال:

- إنها ستجرب حظها بعيدًا ولكنها ستعود تائبة!

وتنهد ثم قال لصديقه الذاهل:

- كلمة الشيخ الشنوانى لا تكذب..


علـى لـوز

شباب البنت سفرجل فترات متعاقبة من الزيجات الباهرة. زفة وقناديل، ورياحين، ومزامير وطبل ورقص، وكمائن للغدر تسيل عندها الدماء وترتطم النبابيت، ثم ليلة زفاف مفعمة بالعربدة، والتأوهات. تكرر ذلك خمس مرات استنفدت شباب سفرجل كله، انحدرت بها إلى طلائع الشيب والكرب، خمس فتوات من عمالقة الحارة، هيأوا لها - كلٌّ على طريقته - حياة عز وجاه وسلطنة. وانتهوا جميعا. كل فى موعده. يسقط الرجل قتيلا، أمام فتوة آخر أو حملة من الشرطة أو فى السجن، ويُنهب بيته، وتجد سفرجل نفسها شبه عارية وعلى الحديدة، تبحث عن مأوى حتى يهب لنجدتها أحد أهل التقوى والكرم.

وعقب دفن الزوج الخامس زارت جامع الإمام ووقفت أمام ضريحه، وباحت بمكنون قلبها المكلوم: «أعاهد الله أمام ضريحك على ألا أتزوج من فتوة أبدا بعد اليوم». . وهمست لنفسها: «أعوذ بالله من الفتونة والعنطزة والدم المسفوك». . ولم يكن الضيق بالحياة المضطربة وحده هو ما دفعها إلى ذلك التعهد، ولكنها كانت قد فقدت الشباب والنضارة، وأخذ الشيب يطل من مفرقها وذؤاباتها، فلم يبق لها من جمالها القديم إلا مسحة توارت فى استحياء تحت قناع الكدر والهموم، ولم يعد يعدها الغد إلا بالمزيد من الشيخوخة والفقر. فعزمت عزمة

صادقة على مواجهة الحياة بإصرار واستسلام معا رافضة أى إحسان أو صدقة. وكان من ضمن ما أتقنته صنع حلوى «على لوز». . فعملت على إعداد صينية كبيرة منها كل يوم تسرح بها فى الحى فى جولة ثم تجلس بقية يومها عند طرف سلم السبيل حيث يجلس عند الطرف الآخر شحاذ الحارة الضرير، واختارت حجرة فى بدروم بيت قديم مسكنا لها. هكذا رضيت بحياة غاية فى البساطة والقناعة أملا فى الاستقرار والطمأنينة.

وبخلاف الجميع ظلت أم شاور الخاطبة تؤمن بأن حظ سفرجل لم يقل كلمته الأخيرة بعد، وتبادلت معها الحديث يومًا فشرَّقت وغرَّبت، ثم إذا بها تسألها:

ـ عندى فتوة من حارة أخرى معروف بحب العتاقى!

فهتفت سفرجل بحدة:

ـ أعوذ بالله.

وغابت عنها مدة دون أن تقطع منها الأمل. ورجعت لتقول لها:

ـ لن أتركك للتراب، لدىَّ هذه المرة شىء مناسب.

فراحت سفرجل تنادى على «على لوز»، وهى تلحظ أم شاور بحذر حتى أفصحت هذه عما لديها فقالت:

ـ شيال الحمول!

فقالت سفرجل بعتاب:

ـ قلت لك أعوذ بالله من الفتوات وسيرتهم!

ـ شيال الحمول أبعد ما يكون عن الفتونة.

وكانت شهرة شيال الحمول قد ذاعت لطاقته الخارقة على تحمل الضرب فاستعمله بعض الفتوات درعا يحمى ظهره من الضربات الغادرة. . وقالت أم شاور مؤكدة ذلك:

ـ لا قدرة له على القتال، أو هو كما وصفوه جسم فيل وقلب عصفور، فهو عز الطلب.

فقالت سفرجل بحزم:

ـ من أجل علاقته بالفتوات والمعارك أقول حد الله بينى وبينه. .

وذهبت أم شاور يائسة تاركة إياها فى دوامة من الانفعال، وإذا بصوت يتسلل إليها قائلا:

ـ أحسنت. ابعدى عن الشر وغنى له. .

فنظرت نحو الشحاذ الضرير بدهشة وهتفت:

ـ تسترق السمع!

واقترب الرجل منها، ومد لها يده بقطعة نقود قائلا:

ـ هاتى ما قسم من على لوز.

لم يكن ذلك بأول حوار يدور بينهما ولكنه كان أول حوار ذى معنى. وكان الضرير معلما ثابتا من معالم حياتها. وهو رجل يلفت النظر بعماه وصبره وقوة جسده، وبما ينشده من مقاطع لمدائح نبوية تقربا من المحسنين. ورمقته وهو يمضغ الحلوى باسما فى ارتياح وتمتم:

ـ حلوة من يد جميلة. .

فقالت سفرجل ساخرة:

ـ شهادة زور.

ـ بل إننى أرى بأذنى.

فسألته دون مناسبة ظاهرة:

ـ ولماذا تشحذ وأنت رجل قوى؟

فقال محتجا:

ـ أشحذ! . . أعوذ بالله. . ما أنا إلا مطرب يسترزق بإنشاد المدائح النبوية والإلهية.

وتنحنح ثم أنشد بصوته الجهير :

شربنا الحب كاسا بعد كاس

فما نفد الشراب وما رويت

فضحكت من قلبها أول ضحكة صافية منذ عهد بعيد. واهتمت بمراقبته فى الأيام التالية فأدهشها أن تلاحظ أن دخله يفوق دخلها أضعافا مضاعفة، ولم تشك فى أنه يكنز النقود حول بطنه فيما ظنته كرشا كبيرة. وأصبحا يتبادلان التحيات والكلام ويتعلل بشراء «على لوز» ليبث فى الاتصال مودة وحرارة.. حتى تشجعت يوما وقالت بإغراء :

ـ غيّر عملك.. هذا أفضل.

ولكنه دافع عن عمله بحماس كالعادة فقالت :

ـ فتح دكان للحلوى أفضل.

فتفكر قليلا ثم تساءل بمكر :

ـ ألا يحتاج ذلك إلى شريك؟

فقالت ضاحكة :

ـ لدىّ شريك جاهز، فاعزم وتوكل على الله.


قمر

وذات يوم فتحت البوابة فند عنها صرير هائل ونفض الغبار عن أركان الدار ونوافذها وأبوابها .

وحمل إلى الخارج نفايات الحديقة والأعشاب والغصون الجافة . وذهل الناس ومضوا نحو الدار من البيوت والدكاكين ، يشاهدون الخدم العاملين ويتساءلون . ألفنا على مدى العمر منظر حارتنا وفى الوسط منها تقوم دار مغلقة نشير إليها عند اللزوم فنقول دار قمر دون أن نفقه للاسم أى معنى ، كما نقول أم الغلام وأرض المماليك . ها هى الدار تعد من جديد للحياة ، وها هم الخدم يذهبون ويجيئون ، وها هو الحنطور يقدم وئيدا حاملا امرأة عجوزا منقبة ، وأحاط الناس بالحنطور وارتفع صياح الغلمان ، ولما ظهرت العجوز مستندة إلى خادمتين تطايرت كلمات مستهزئة فغضبت المرأة ونظرت نحو الهازئين وصاحت بصوت خلخلته الشيخوخة :

ـ يا غجر . . أنا قمر . .

عند ذاك اختفت الأسطورة ورجع التاريخ إلى مجراه ، وراح نفر من الباقين من الزمان الأول يروون ما احتفظت به الذاكرة من الحوادث الماضية وينتشلونها من بحيرة النسيان . كانت دار الحاج قمر أفخم دار فى حارتنا ، ولكنها تطالع الأعين بسور عال حجرى تلوح من فوقه رءوس نخيل . وكان الحاج قمر أغنى أغنياء الحارة ، وملك تجار المسابح

والعصى والنشوق المفتخر، واشتهر الحاج بحب زوجته ورعايتها، وهذه بدورها أنجبت له أجمل طفلة فى الوجود أسماها باسمه «قمر»، ولم ينجب غيرها لمرض أصابه فازداد تعلقه بالصغيرة الجميلة، وكانت الطفلة ترى وهى تلعب أمام الدار وهى مستقلة الدوكار مع أبيها، وكان لون بشرتها الأبيض الصافى وسواد عينيها وشعرها من أفتن مفاتنها، وظلت بهجة الأعين وزاد الخيال حتى سرى إليها دفء الأنوثة فحجزها أبوها خلف السور العالى وتوارى نورها عن الأبصار. ويذهب الناس ويجيئون أمام البوابة القائمة تحت التمساح المحنط وهم يحنون شوقا إلى الوجه الصبيح، ويتخيلون صاحبته وهى تنضج، وتستوى على عرش الجمال والأبهة. وتأملت أم حسين الخاطبة الحال ولخصت الموقف فى جملة قائلة: «عشاقها بالمئات أما خطابها الصالحون فواحد أو اثنان»، وحصل كلام من أكبر تاجر ليمون مزكيا ابنه زين للزواج من قمر، فلم يرفض الحاج قمر العرض ولكنه أجل إعلانه حتى تبلغ قمر الثامنة عشرة من عمرها السعيد. وعرف زين بالعريس الموعود، ولم يستطع أحد من عشاقها ذوى الدخل المحدود أن يقلل من شأنه فسلموا للمقادير. لكن ظهر فى الحارة فى ذلك الوقت شاب غريب لفت الأنظار بقامته المتينة وجلبابه الفضفاض ولاسته المزركشة وعصاه الغليظة.. لم تربكه الغربة فشق طريقه بثبات إلى المقهى، وجلس إلى مائدة كأنما يجلس فى داره، ولما رأى تطلع الأعين إليه متسائلة قال بهدوء:

ـ محسوبكم عنتر ابن المعلم كفتة..

وسرى اسم أبيه فى الأعصاب مثل قشعريرة الحمى، هو رجل من أطراف الحى ذو سطوة قادرة وسمعة سيئة. وتساءل الناس عما جاء به، وظهر أنه كان ينتظر عودة الحاج قمر إلى داره، فلما عاد نهض من مجلسه وسار نحو الدار فى ثبات للقائه.

لم يعرف أحد ما دار بين عنتر وقمر ولكنهم خمنوا السبب.

وانتشر القلق بين أهل الحارة مثل وجع الأسنان. هل طلب عنتر قمر؟ . . هل تنتقل قمر من دار العز إلى بؤرة الفساد والشر؟ وقلق أيضا شيخ الحارة المسئول عن أمن الحارة وراحة أهلها. وقابل الحاج قمر وسأله عما يجرى فقال الحاج:

ـ طلب عنتر القرب منى فأجبته بوضوح أن فاتحتها مقروءة وأنى لا أرجع عن كلمة أعطيتها . . وبقدر ما ارتاح شيخ الحارة تضاعف قلقه. وقرأ الحاج ذلك فى وجهه فقال:

ـ إنى أعرف أنى رفضت ابن كفتة ولكنى قدها . .

ومرت حارتنا بفترة من التوجس والقلق، وكل إنسان أدرك أن زفة العروس ستشهد معركة دامية. ولكن من ذا يقف أمام كفتة ورجاله؟

وأجاب الحاج قمر إجابة ملموسة: أؤجر فتى من فتيان أرض المماليك عرف بشدة البأس.

فجاء لحراسة الدار هو وعدد من عصابته. وأيقن أهل حارتنا أنهم سيشهدون معركة حامية بين كفتة وعرجون، وتمنوا النصر لعرجون إكرامًا لحارتهم وحبا فى الجميلة التى علمتهم الحب.

وأعلن الحاج عن يوم الفرح ومهد له بالمقرئين يتلون القرآن الكريم والمدائح النبوية. وكثرت الحركة وعمّ النشاط واقترب يوم الهنا والدم. ولكن النشاط باخ وهمد وفترت الهمة.

وهمس إمام الزاوية فى أذن شيخ الحارة «فى الجو غيم».

اختفى صنف العمال، وسكتت التلاوة، واختفى الحراس الجدد وفى مقدمتهم عرجون، والحاج قمر لم يعد يرى، وخلا مقعده فى الوكالة. وإذا بصيوان ينبئ عن موت ربة البيت. ولم يظهر الحاج لا فى الجنازة ولا فى المأتم وذاع أنه مريض لا يغادر الفراش.

ولم يمض أسبوع حتى لحق الرجل بزوجته.

أهو المرض الذى دهم الأسرة وفرحها؟

وكيف تواجه الجميلة قمر الحياة بمفردها؟

ـ ولكن الدار أغلقت، وتركت مهجورة خالية لا يخدمها أحد.

ثم عرفت الحكاية دون أن يعرف مصدرها. عرفت الحارة حقيقة مأساتها وهى أن الجميلة المعبودة اختفت فجأة فلم يقف أحد علٰى أثر لها. اختفت فى نفس اليوم الذى اختفى فيه عرجون الذى جىء به لحراستها ليلة زفافها.

واجتاح الحارة غضب وحزن وقنوط لم تشعر بمثله من قبل، قالوا محال أن تكون أحبته أو هربت معه مختارة، لعله خطفها، أو لعله عمل لها السحر والشبشبة.

وشعرنا مع الغضب والحزن والقنوط بالعار، وراحت نخبة من عشاقها تبحث عنها وتتابع أخبارها وتفكر فى إنقاذها ما وجدوا الحيلة إلى ذلك. وعرف أن عرجون استخلص لها حقها فى الميراث بالمحكمة وأنه استولى عليه، وأنه أساء معاملتها، وجرح مشاعرها بالجنايات التى احترف ارتكابها. وقيل إن بعض عشاقها من أهل حارتها حاولوا الهروب بها ولكنهم لم يوفقوا ولم يسمع عنهم بعد ذلك.

ودخل الزمن فى المأساة كما يدخل فى كل شىء فمضت حرارتها فى الانخفاض التدريجى، حتى اعتاد الناس اختفاءها وألفوا تعاسة مصيرها. وأخذت تنسى ويكبر عشاقها ويموتون حتى جاء جيل لا يكاد يعرف عنها شيئا. جيل يعيش أمام دارها المغلقة دون أن تثير فيه أى عاطفة أو تدعوه إلى أى تأمل. . وأصبح مثوى الجميلة أثرا ميتا يدعونه «دار قمر» كأنها كلمة واحدة خالية من أى معنى.

وذات يوم دبت الحياة فى الدار وما حولها. فتحت البوابة. ونفض الغبار عن أركان الدار ونوافذها، وظهرت أرض حديقتها من الأعشاب

والغصون الجافة والنفايات، وأقبل الناس من البيوت والدكاكين يتساءلون. وأفعمت أعين القلة المخضرمة بالحنين. وأقبل الحنطور يتهادى حتى وقف أمام الدار. وفى بطء شديد غادرته عجوز منقبة معتمدة على منكبى امرأتين. أحدقت بها الأبصار بين صمت وهمهمة. وارتفعت أصوات الغلمان فى سخرية واستهانة. وبدا أن المرأة غضبت فنظرت نحو مصدر السخرية وصاحت بصوت خلخلته الشيخوخة:

ـ يا غجر.. أنا قمر..!

الزفــة الميـــرى

حارتنا فى شبه عزلة، ويندر أن يمر بها غريب، وأهلها يعرف بعضهم البعض كأنهم أسرة واحدة فإذا وفد عليهم غريب بسبب طارئ كان وفوده علامة من علامات الزمن تؤرخ بها الأحداث، من أولئك شيخ معمَّم اخترق الحارة حال عودته من زيارة المقابر عادلا عن الطريق العام، وفسر ذلك بما تلاه من حوادث عندما أصهر إلى أسرة «شلبية» ومنهم آخر أفندى طرق الحارة كالغائب وجلس فى المقهى ليشرب العديد من فناجين القهوة، وقيل إنه ضل سبيله، والثالث خواجا جاء ليلتقط بعض الصور الفوتوغرافية محاولا التقرب منا بلغة ركيكة مفككة فلم يتم أى تفهم مفيد.

وددنا أن تسير بنا الأمور بعيدا عن أى كدر أو قلق، ولكن فى يوم من الأيام التى تضاربت الأقوال فى تحديده أقبلت علينا جماعة من الأغراب تتقدم فى خطوات ثابتة ثم توقفت فى منتصف الحارة لتتبادل كلمات خافتة. وكانوا تشكيلة غريبة متنافرة. منهم نفر من الأفندية، وشيخان معممان، وفيهم أيضا خواجا يغطى رأسه بقبعة عالية. توقف كل إنسان عن عمله لينظر، وامتلأت النوافذ بالضفائر، وخرج شيخ الحارة من مكتبه ومد إليهم بصره فى توجس وحذر، وتحركت الجماعة ذهابا وإيابا ما بين مدخل الحارة المفتوح على الميدان ومخرجها المفضى إلى طريق المقابر، وجعلنا نتابعهم ونتوقع ما ليس فى الحسبان، واتجهت الأبصار

إلى شيخ الحارة فأشار إلينا بالصمت والصبر، أما الجماعة فواصلت مهمتها بفحص الجدران، والسبيل والكُتّاب وحوض مياه الدواب وكشك الحنفية والقبو. . واهتموا بالأرض المبلطة بالأحجار اهتماما خاصا، ثم رجعوا إلى وقفتهم فى الوسط يتناجون. وارتفعت الهمهمة حتى شعر شيخ الحارة بالحرج، فاقترب منهم فى حذر رافعا يده بالتحية، غير أن أحدهم قال له بلهجة آمرة قبل أن يفتح فاه:

ـ انتظر فى مكتبك.

فرجع الرجل إلى موقفه الأول منطوى القسمات من الخجل والإحراج، واستمرت الجماعة فى المناجاة، وكانوا يشيرون إلى جهات مختلفة أحيانا، كما ندت عن أحدهم ضحكة ثم يتحركون نحو مخرج الحارة، وعبروه إلى الممر الموصل للقرافة واختفوا عن الأنظار، وضجت الحارة بالأصوات وعبر كل عما جال بخاطره:

ـ من يكونون؟

ـ الله أعلم ولكنهم من الحكومة على أى حال.

ـ ولماذا صبحونا بوجوههم العكرة؟

ـ ستخبرنا الأيام فلا تتعجل.

ـ رئيسهم الأفندى الذى يتقدمهم.

ـ وربما كان الخواجا رغم أنه يسير فى الذيل.

وتراوحت التوقعات بين التفاؤل والتشاؤم، وأطلقنا على الجماعة فى أحاديثنا اسم «الزفة الميرى» وقبل أن يفتر الحديث عنا أخبرنا شيخ الحارة أن وزارة الأوقاف قررت تجديد السبيل وإعادة تشغيله، وفسرنا ذلك بأنه أول ثمرة لزيارة الزفة الميرى، وسرعان ما جاء العمال والمهندس ومندوب الوزارة وبدأ العمل، وارتفعت موجة التفاؤل، قلنا إنه ليس من المعقول أن تزورنا زفة طويلة عريضة من أجل تجديد السبيل

وحده، وسوف تكشف الأيام عن أعمال أجل، وإذا بشيخ الحارة يبشرنا بأن الحكومة ستقيم سقفا جديدا للكُتّاب، مكان السقف الذى أودت به العاصفة فى الشتاء الأسبق، وقلنا يا لها من زفة ميرى مباركة! وإن زمن الخيرات هلّ ملوحا بألويته، وبنفس الهمة رمم حوض مياه الدواب، كما قيل إن مفاوضات تجرى لتحويل بيت إلى مستوصف، عظيمٍ.. عظيم.. أيتها الزفة.. حقا لقد فقدت الحارة هدوءها، فعمَّها الضجيج، وكثرت المشاجرات، وامتلأت الأركان بالنفايات، وجاء أهل المزاج فأعدوا تحت القبو غرزة، وبوظة للعمال والشباب. وتسللت إليها رموز الدعارة وفاحت الرائحة، فانزعج الناس ودعوا شيخ الحارة لتطهير الحارة مما دهمها على غير توقع، وبسبب ما، لم ينجح الشيخ فى مهمته وقال كالمعتذر:

- الضرورات تبيح المحظورات.

وقال إمام الزاوية:

- الخير والشر متلازمان كالنهار والليل، ولا خوف على مؤمن.

وانتشر قول بلا أى دليل وهو أن أحد أعضاء الزفة وراء مجمع الفساد تحت القبو.

وثارت اتهامات كثيرة، وأرجعوا كل شىء إلى الزفة الميرى، وغشى الحزن القلوب.

واشتد الشتاء وقسا أكثر من أى عام مضى، وتهكم كثيرون فقالوا: إنه شتاء الزفة الميرى، وإنه يجب أن يحمل طابعها المشئوم، وتوارت الشمس وراء ركام السحب، وهب هواء مزمجر فعصف بكل شىء فانقلبت عربة اليد وطار ما عليها من الفاكهة والخضراوات وانهمرت الأمطار كالفيضان واستمرت بلا هوادة فأغلقت الدكاكين وهرب الناس من بيوتهم، وانفضت تلك الغضبة الكونية ففتكت بما فوق الأسطح من

طير وحيوان وكراكيب، وانهار السبيل وتهدم كشك الحنفية وسقط سقف الكُتّاب، وصاح إمام الزاوية من وراء بابها المغلق: «قامت القيامة ولله الأمر!».

ويقول الرواة: إن العاصفة والأمطار استمرت النهار والليل، ولم تسكن ثورة الكون، إلا صباح اليوم التالى.

وراح شيخ الحارة يتفقد الأحوال متوقعا فى كل خطوة شيئا، وعندما اطلع على الممر المفضى إلى المقابر وجده غارقا فى الماء ورأى فوق سطحه بعض الجثث والهياكل العظمية تنحدر بها المياه نحو الحارة.

ورجع الرجل وهو يصرخ بأعلى صوته: كفاكم حديثا عن الحظ والقدر والزفة الميرى، وهبّوا إلى العمل، وإلا اجتاحت الأموات بيوتكم!

ليلة الزفاف

طلعت الأردوازى من الأوائل السابقين إلى ارتداء بدلة الأفندية فى عمارتنا وليلة زفافه تذكر فى الليالى بفضل المنيلاوى الذى أحياها حتى مطلع الفجر.

وجاءوه برجل مبارك ليقرأ طالعه فنظر فى مفرق شعره وتابع خطوط كفه وقال: «من يد واحدة يسيل العسل والسم».

واكتأب العريس مما سمع فطالبه بالمزيد من الإيضاح ولكن الرجل لم ينبس. ونظر العريس فى وجوه الحاضرين وسأل:

ـ ما رأيكم فى نبوءات قراء الطالع؟

فقال صاحب حكيم:

ـ كذب المنجمون ولو صدقوا..

وأسلم الشاب جسده إلى موجة الفرح العالية فغمرته وغسلت ما علق به من كدر وشك.

ولما تجلت نظرة الكراهية السامة بعد ذلك بأعوام طوال، ثم وقعت الواقعة تذكر أناس من جديد نبوءة قارئ الطالع. وثار العجب مرة أخرى وأقبلت الحيرة. لكن ما وقع كان قد وقع.

السعادة

ـ لماذا قتلته؟

ـ لم أقصد قتله، ضربته بعصاى على رأسه.

ـ كانت الضربة شديدة فقتلته..

ـ قتله أجله.

ـ ولكن بضربة عصاك الشديدة.. والغريب أن الشهود أجمعوا على أنه لم يقع بينكما ما يدعو إلى أى خصام.

ـ لم يقع بيننا شىء، كنا نجلس بركننا المختار فى المقهى لنتسامر كالعادة.

ـ وفجأة ضربته بلا سبب.

ـ ذلك فى الظاهر. أما الحقيقة فهى أننى ضربته احتجاجا على سعادته..

ـ سعادته؟!

ـ لم أنس بعد وجهه المستدير الممتلئ وعينيه الباسمتين وصحته الصارخة والسرور الدائم الذى يطفر من خديه المتوردين.

وعض على شفته لحظة ثم واصل حديثه:

ـ لم ير فى الدنيا إلا ما يسرُّ، ولا يكف عن الضحك، ويحول بمهارة

واستهانة المآسى إلى مهازل، حتى مأساة الموظف المسكين الذى قذف من النافذة هربًا من مصروف البيت . .

وسكت لحظة أخرى ثم قال :

ـ طالما استفزتنى سعادته فكان لابد أن أسوى حسابى معها .

نذير من بعـــيـد

و«حسبو» الذى أنذرنا بخطر لم يقع لنا فى حسبان. كان يبيع الروائح العطرية برزق محدود، أما ثروته من قلوب الناس فلا حدود لها، وأبرز سجاياه كانت الصدق والوفاء. وعرف أنه فى أوقات فراغه يداعب الغناء ويعشق السمر ولا تحلو له الجوزة إلا فيما وراء المقابر.

وعاد يوما من سهرته صباحا شاحب الوجه شارد اللب، وفى وسط الأصدقاء بالمقهى حكى كيف نودى وهو راجع فى الظلام، وكيف وجد نفسه بين أشباح غاضبة، عرف فى سياق حديثها أنها هياكل أموات أهل الحارة السابقين، وأنهم لا يوافقون على ما يرتكب فى حارتهم من فعال منكرة، وطالبوه بأن يكون نذيرهم إلى أهل حارته بأنه إذا لم ترشد أمورهم وتستقم فسوف تزحف عليهم جيوش الهياكل العظمية لتطهر الحارة من الانحراف والمنحرفين.

وضحك البعض. وانخرط البعض فى المزاح، غير أنهم وجموا حيال حزنه الشديد ونظراته الدامعة المنكسرة:

ـ أأنت جاد يا حسبو؟!

ـ ما عرفناك كاذبًا قط.

ـ لكن ما تقول هو المستحيل بعينه.

فقال بصوت متهدج:

ـ جلت قدرته.. يقول للشىء: كن فيكون.

ومن عجب أن بقى أثر من حديث حسبو فى نفوس كثيرة . ردد قوم ما يقال عن سنن الله التى لا تبديل لها ، وانحاز آخرون إلى مقولة قدرته التى لا تعرف الحدود وخاض فى ذلك العقلاء والعامة والسفهاء أيضًا حتى كادت تنشب فتنة . واضطر شيخ الحارة أن يتدخل فصاح فيهم يوم السوق .

ـ ما لكم ولهذه المسائل العويصة! هل فرغتم من همومكم اليومية!

واستعان بإمام الزاوية ولكن الجدل تواصل واستفحل ، وتبودلت شتائم وحصل اشتباك بالأيدى .

وفى أثناء ذلك كانوا يشيرون إلى نذير الأموات وكأنه حقيقة لا شك فيها . ودون أن يقلل ذلك من الانحرافات التى ترتكب كل يوم وكأنه لا علاقة بين الاثنين .

أما حسبو فقد انسحب من حياة حارته ، وانجذب بكل قواه نحو عالم الغيب ، وتقطعت العلائق بينه وبين الناس والأشياء فانتهى إلى الجلباب الأبيض والعمامة الخضراء والكلمات المبهمة . وكان يقضى أكثر وقته عند طرف القبور متطلعًا إلى الخلاء منتظراً ما يجىء به الوقت .

الأرض

في ساعة هدوء وخمول وطمأنينة انفجر الرعب من الأعماق، واجتاح القلوب وغدر بالآمال فلم يبق إلا المجهول ومادت الأرض ورقصت رقصة الموت فدعا كل لسان بريق جاف أن ينتهى ذلك الزلزال.

وانتهى الزلزال بعد ثلاثين ثانية من الزمن وألف عام من العذاب. وتطلع شيخ الحارة فيمن حوله فرأى الحارة تموج بأهلها من النساء والرجال والصغار ومسحة الرعب لم تنحسر عن وجوههم بعد. واختلطت الأصوات أيما اختلاط. ضحك وبكاء وصراخ. الكل يتكلم ولا أحد يسمع أما الغبار فلم تنقشع سحبه بعد. ومسح شيخ الحارة عينيه بمنديله الكبير المقلم وصاح:

ـ وحدوا الله.. فى يومنا هذا يمتحن الله عباده.

واستبقت إليه الأصوات من كل جانب:

ـ أهلى تحت الأنقاض.. إلىّ برجال الإنقاذ..

ـ لدىّ جرحى ونريد الإسعاف.

ـ جثث.. هذه جثث ويجب أن تدفن.

ـ أصبحنا ولا مأوى لنا..

فصاح شيخ الحارة:

ـ أبلغت السلطة وطلبت اللازم. لابد من الصبر لأن الطلبات

كثيرة . . تعاونوا ما أمكنكم وليكن اعتمادكم على الله وعلى أنفسكم حتى يجىء الفرج .

وقامت ضجة عند الزاوية المطلة على الميدان . وصوت صرخ :

ـ فضيحة يا شيخ الحارة . .

وشيخ الحارة ذهب صوب الصوت فوجد نفسه أمام عمارة الزنفلى التى سقط نصفها الأمامى تاركا نصفها الداخلى أمام الناظرين . وفى الدور الثالث لم تستطع ست سوسن أن تجد مكانا تخفى فيه جسدها العارى وبالتالى لم تستطع أن تخفى الرجل العارى معها الذى عرض ظهره للأعين ودفن وجهه فى الجدار ، رغم ذلك عرفوه وأكثر من صوت هتف :

ـ المعلم طلبة .

ـ أهلك قادمون ليشهدوا بأعينهم فضيحتك .

ـ الزلزال عقاب وعبرة .

وتساءل شيخ الحارة مغيظًا محنقًا :

ـ أكانت تنقصنى هذه الجريمة فى هذا اليوم الأغبر !

وإذا بإمام الزاوية يحمل طفلة باكية فى السادسة أو دون ذلك فقال لشيخ الحارة :

ـ المسكينة فقدت أسرتها وعلينا أن نجد من يتبناها ، وتنهد شيخ الحارة وغمغم :

ـ فى غمضة عين ليس إلا . . سبحان الله العظيم .

أم الذهب

ضبط شيخ الحارة بنفسه يونس القفا وهو يغوى رجلا حال خروجه من الزاوية لقضاء سهرة هوى. وقال له شيخ الحارة غاضبًا:

ـ جريمتك مضاعفة، فأنت تقود إلى الفساد، ولا تكتفى بذلك بل تختار ضحاياك من أهل الصلاة والتقوى.. فقال الرجل بخوف وقهر:

ـ فعلت ما أمرت به.

ـ أجبنى فورًا عند من تشتغل؟

ـ عند ست ربيبة المشهورة بأم الذهب.

كان بيتها خارج القبو عند حافة القرافة. وكانت جميلة وافية المعالم.. ولأنها تُرى فى الطريق بوجه وفى البيت بوجه وفى النهار بوجه وفى الليل بوجه فلم يستطع أحد الجزم بعمرها.

وراقب شيخ الحارة بيتها حتى كبسه فى الوقت المناسب. سقطت المرأة بعد حمل سرى طويل. وقال شيخ الحارة لأم الذهب.

ـ إنى أفهم كل صغيرة وكبيرة فى عملك ولكن يحيرنى أمر واحد، كيف وجهت خادمك أخيرًا لاصطياد المترددين على الزاوية؟

فقالت المرأة بجدية:

ـ عانيت من الآخرين القهر والنهب والعربدة فقلت أجرب الناس الطيبين.

ولم يتمالك شيخ الحارة نفسه من الضحك ولكن المرأة لم تضحك.

تحت العمامة عريس

عائلة الشيخ توكل هى أعجب عائلة فى حارتنا. بها قارئ قرآن ضرير مجدور الوجه يلفت الأنظار بقصر قامته وضخامة رأسه. وربَّتها سيدة أقرب إلى البدانة تسيء للناظرين بتشوه قسماتها فهى تحجب وجهها حتى فى بيتها، أما الذرية فتتكون من شابين وسيمين وبنت كالقمر فى تمامه تسحر اللب والخاطر، وكل من يرى الأسرة لأول مرة يتساءل كيف حدث هذا؟ كيف تنبثق الأزهار من غياهب البوص؟!

يقول الرواة إن منيرة كانت حديث الحارة وفتنتها. الأب كان حلوانيًا بسيطًا من سكان الربع وكان يقول: «جمال منيرة لا مثيل له فلنسأل الله السلامة» ولكن الكثيرين تنبأوا بالمتاعب، وكل واحد تكلم، وكان الشيخ توكل من السامعين، وكان له رأيه أيضًا فقال يومًا:

ـ هذه مسألة لا يحلها إلا شيخ الحارة.

فقال له أحد الجالسين فى المقهى:

ـ إنه امتحان خلقه الخالق يمتحن به عباده..

كانوا يتحدثون عن جمالها وحلو أوصافها وسعادة من يفوز بها. ويشتد النقاش ويحتدم وينذر بالخطر. أما معانيه وأخيلته فتستقر فى قلب الشيخ توكل فيتذوقها فى هدوء رجل قضى عليه بأن يبقى خارج حلبة السباق. ومن كثرة ما سمع خاطب نفسه متأثرًا قائلاً: «لا عزاء يا توكل.. ما أنت إلا عاشق صمت» وراح يتلو فى سره سورة يوسف.

وكان يختم تلاوته بالزاوية عندما سمع شيخ الحارة يقول للإمام:

ـ أكان ينقصنى الغرام لأحمله مع بقية الواجبات؟

فقال له الإمام:

ـ استدع عم حسنين أباها وشجعه على أن يزوجها فى الحال.

ـ المشكلة أن جميع شباب الحارة لها خاطبون!

فصاح الإمام غاضبا:

ـ لا يصح أن يزعزع لعب العيال أمن الحارة..

وخاطب الشيخ توكل نفسه قائلاً: «ما أنت إلا عاشق مهجور ملقى فى الخارج». وفى تلك اللحظة من الزمان الحزين ألقى ماء النار على الوجه الجميل فى العتمة وصاحبته خارجة من بيت أبيها ذاهبة إلى بيت الجيران..

وخفق للمأساة كل قلب وانصبت اللعنات على الجانى المجهول الجبان..

وغاب وجه القمر تحت غيم لا يريم ولا ينقشع. ولكنه ظل هو بكل بهائه وفى قلب الشيخ توكل، وغمغم مسحوراً «هكذا تجىء الملائكة بالمعجزات». وقبل أن يتمادى الحزن فى بيت عم حسنين ويفعل فعله ذهب إليه الشيخ توكل مهتديا بعصا وضغط على يده بحنان وقال:

ـ جئتك يا عم حسنين طالبًا القرب..

القلوب الطائرة

اعتلى منبر الزاوية رجل غريب . . وقبل أن ينال موافقة الإمام على إلقائه الخطبة هتف بصوت جهير : «أيها الناس . . بسم الله الرحمن الرحيم» .

وانطلق يهدر بخطبة لم يسمع الناس مثلها من قبل . لا لأنها أبلغ الخطب ، ولا لأنها أحكم الخطب ، ولكنها كانت أعظم الخطب إثارة وتهييجا ، وصمت المصلون ليتطلعوا صامتين وملأوا قلوبهم بكلماته النارية ـ أو قل إنها امتلأت تلقائيًا وبغير إرادة ـ وذهل الإمام مع الذاهلين وهمس لنفسه :

«أتوقع عواقب لم تكن فى الحسبان» ولم يتنبه شيخ الحارة لخطورة الحدث إلا حين ترامت إليه تعليقات الناس ، فلما أرسل بصره نحو المنبر ليرى الرجل الذى هيج تلك الزوبعة لم يجد له أثرًا .

وسأل شيخ الحارة الإمام :

ـ أتعرف الرجل؟

ـ أبدا .

ـ كيف سمحت له بالخطابة؟

ـ كما يتفق لبعض الناس فلم أتوقع ما كان يخفى .

ـ وأين ذهب؟

ـ اختفى كأن الأرض ابتلعته . .

على أن الحارة لم تعرف الراحة منذ خاطبها ذلك الصوت . . تحمس له أناس، واتهمه كثيرون وثار الجدل، وانقلب فى أحيان كثيرة إلى مشاجرات وسالت فيها الدماء . كل ذلك دون أن يظهر للرجل أثر . ولم يشهد واحد ممن سمعوه أو رأوه أنه من أهل الحارة، أو سبق أن رئى فى ربوعها أو مقهاها، حتى قالت امرأة هالها الشجار والدم :

ـ إنه عفريت جاء ليعبث بنا ثم رجع إلى مخبئه . .

وحاول الإمام أن يدعو الناس للكف عن الجدل والخناق، وحاول شيخ الحارة، ولكن الجدل كان يزداد والخناق يتضاعف .

وكثرت الأقاويل بلا دليل، قائل يقول : «كنت راجعا إلى بيتى عند منتصف الليل حين ظهر لى وقال لى . وآخر يقول . . وهكذا . . حتى دخلت الأقاويل فى الأساطير والخرافات وازداد الأمر شدة وارتعب الإمام إذ تصور نفسه يسأل فى وزارة الأوقاف .

وارتعب شيخ الحارة إذ خاف يوم يسأل فى الداخلية . ولم يبق من الواقعة الأصلية إلا صورة باهتة تروى عادة فى صور مختلفة، كذلك محيت الخطبة المثيرة أو كادت، ولكن الخصام استمر واشتد وأنذر بعواقب لا تسر أحدًا .

ولم تخف حيرة الحائرين إلا حين وقف أحد المجاذيب على سلم السبيل فى يوم السوق وقال من خلال ريقه السائل : سيجىء الفرج بلا دليل، كما جاء الهرج بلا نذير .

زغــــــــــرودة

دقت طبول الزفاف وطارت زغرودة إلى السماء. قال زهران بأسى: إنه زفاف ياسمين ومهران. ونظر إلى صديقه مهران بين الورود والأصحاب وقال بدهشة: وها هو العريس يتبختر والحظ يبتسم والدنيا حظوظ.

وقالت له أم إسماعيل:

- لا تحزن على ما فاتك، الغيب مليء بالحسان.

ولكن هذه المرأة لا تعرف كل شيء، لا تعرف أنني ومهران بدأنا العمل فى يوم واحد بوكالة القللى. وأحببنا ياسمين حب الجار للجارة فى عام واحد. وراح هو يدَّخر الفائض من مرتبه، أما أنا فظننت أن أى ادخار لن يكفى ثمنا لمهرها فرُحت ألهو وأقتنى دواوين العشاق. حتى انتبهت ذات يوم على خبر يجرى ما بين القبو والميدان معلنا خطبة ياسمين ومهران.

- يا أم إسماعيل، خسرتها لأننى عرفت قيمتها الحقيقية..

فضحكت المرأة لتهون عليه وقالت:

- أو لأنك لم تعرف قيمتها، وسوف آتيك بأحسن منها.

الشحاذة

وكعادتها سألت نفسها: ما الحل يا أمونة؟

وجالت فى عوالم خبرتها المحدودة ثم قررت أن تعمل شحاذة. ولم تخف قرارها عن ابنتها الوحيدة. وفزعت الشابة ولكنها لم تجد ما تقوله. فالمشكلة هى مشكلة أطفالها الأربعة الذين مات أبوهم قبل الأوان تاركًا الزوجة والأبناء للضياع. وقالت الزوجة بأسى شديد: «كان أبوهم موظفًا وكان يرجو أن يسير أبناؤه فى طريقه، لا كما يسير أبناء الشوارع» فقالت أمونة الجدة بإصرار لا يناسب عمرها المتقدم: «سيسير الأولاد فى الطريق المرجو» واتخذت قرارها.

وكلما جاء الليل التفت فى جلباب أسود ومضت إلى الأطراف البعيدة من الحى. تسدل النقاب على وجهها النحيل الجاف وتمد يدها.

وخطب تاجر ميسور الأرملة الشابة فشجعتها أمها على الموافقة قائلة:

«مازلت شابة ولابد لك من رجل» وذهبت الأم مع زوجها وبقيت الجدة ترعى وتربى وتشحذ فتجمع رزقا وفيرا.

لكن الوقائع لا تتوافق دائمًا مع الرغائب. انكشف السر فى أحد

الموالـد وحملـه غـواة الأذى إلى كل مكان . وتداوله ناس كفضيحة ما بعدها فضيحة وعبث به آخرون فجرى مجرى المزاح والمجون .

ولم يحتمل بيت أم الأولاد الخبر فسرعان ما طلقها زوجها ، فرجعت إلى أمها مقهورة باكية حتى صاحت بها أمها : «لا حيلة لك إلا البكاء ، وهل فعلت ما فعلت إلاَّ دفاعا عن أولادك؟!» .

وجالت العجوز فى عوالم خبرتها المحدودة ثم قررت الهجرة إلى مكان لا يعرفهم فيه أحد لتكمل فيه رسالتها .

القـــــانـــــون

غادر حافظ السيد السجن بعد تأبيدة التهمت من عمره ربع قرن بلغت به الخامسة والأربعين. رجع إلى الحارة بقلب ملؤه الشوق والحذر ولكنه لم يكن يعرف أحدًا ولم يعرفه أحد. وجد الحارة مشغولة بالبيع والشراء والضحك والحزن والصخب. وبدت ناسية تمامًا لعهد البطولة والأبطال. ترى هل ضاعت التضحية هباء؟ . . وها هى عينه الحائرة تستقر على لافتة فى أعلى وكالة كبيرة سجل عليها «الرمامى وأولاده» وراح يتذكر القدر وهو يلعب بالبطولة والخيانة ويوزع الأبطال والخونة ما بين السجون والمتاجر.

ودعاه شيخ الحارة إلى مقابلته فى دكانه فمضى إليه.

دعاه للجلوس وقال:

ـ أهلا بك فى حارتك مرة أخرى.

فغمغم الرجل بشكر الله فقال شيخ الحارة:

ـ يجب أن تعمل . . فى السوق متسع وأنت متعلم.

ـ تلزمنى فترة قصيرة للراحة والتفكير.

فقال الشيخ بقوة:

ـ احذر الفراغ فإنه رفيق سوء.

ـ فترة قصيرة فقط . .

فقطب شيخ الحارة متسائلا:

- أترغب فى الحياة حقا أو رجع الشيطان يساومك؟

فقال بعجلة:

- انتهى الماضى بخيره وشره. بأبطاله وخونته!

فقال شيخ الحارة بحدة:

- لا تعد إلى تلك الأوصاف، ولا تذكر ثانية الأبطال والخونة، الأمور نسبية ولا تنس أننى صوت القانون ويده فى هذه الحارة.

فأشار حافظ السيد إلى الوكالة وقال:

- هذه الوكالة فتحت بالمال المدفوع ثمنًا لخيانتنا، فكانت الوكالة فى ناحية والسجن والمشنقة فى الناحية الأخرى، وأنت رجل على أى حال من أبناء حارتنا فهل ترضيك هذه القسمة؟

فقال شيخ الحارة بحزم:

- يرضينى ما أجد القانون عنه راضيًا، وطبعًا أنت تعرف أنك مراقب، وأنا لا أحب أن أراك فى الحديد مرة أخرى وحسبك ما ضاع من عمرك.

ومد له يده قائلاً:

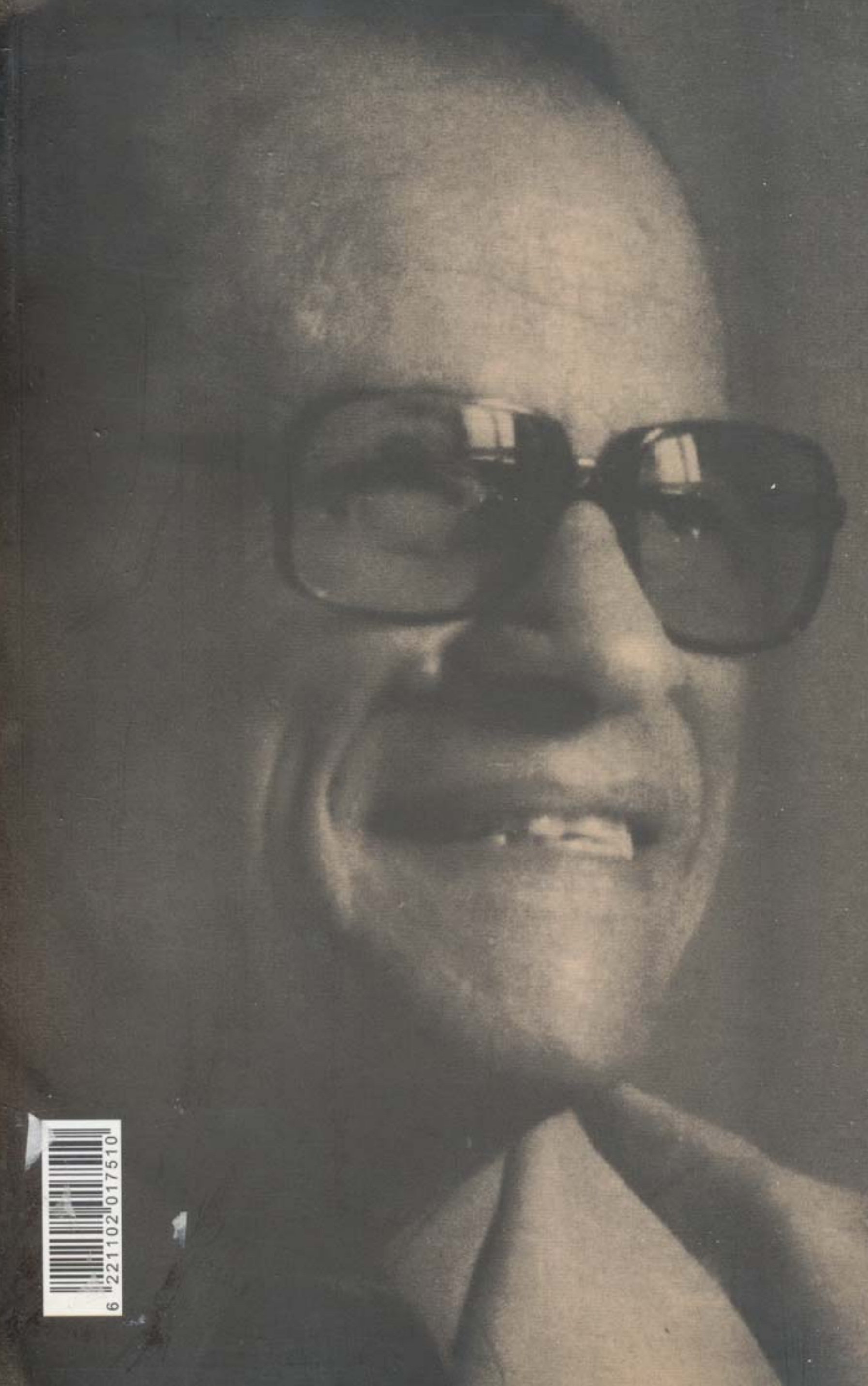
- اذهب بسلام.

أعمال نجيب محفوظ

١ -	مصر القديمة	ترجمــة	١٩٣٢
٢ -	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ -	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ -	رادوبيــس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ -	كفاح طيبـة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ -	القاهرة الجديدة	روايــة	١٩٤٥
٧ -	خان الخليلى	روايــة	١٩٤٦
٨ -	زقاق المدق	روايــة	١٩٤٧
٩ -	الســراب	روايــة	١٩٤٨
١٠ -	بداية ونهاية	روايــة	١٩٤٩
١١ -	بين القصرين	روايــة	١٩٥٦
١٢ -	قصر الشوق	روايــة	١٩٥٧
١٣ -	الســكرية	روايــة	١٩٥٧
١٤ -	اللص والكلاب	روايــة	١٩٦١
١٥ -	السمان والخريف	روايــة	١٩٦٢
١٦ -	دنيــا اللــه	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ -	الطــريق	روايــة	١٩٦٤

١٨ ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ	الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ	ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ	ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ	أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ	تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ	شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ	المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ	الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ	الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ	الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ	حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ	قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ	حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ	الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ	عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ	أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ	ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	روايـــة	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايـــة	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	روايـــة	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيـم السـرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	روايـــة	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	روايـــة	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	روايـــة	١٩٨٧
٤٨ ـ	صبـاح الـورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشـــتمر	روايـــة	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القـرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صـدى النسيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتـوة العطـوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤


6 221102 017510